روايات 



سابى

THE WIND CANNOT READ

٥٠ مليما

روايات عالمية

العدد رقم ٣٤١

سالي

تأليف ريتشارد ماسون

ترجمة السيد وفاني

الكتاب الأول

الفصـــل الأول

استغرق خروجنا من الأدغـال شهرى أبريل ومايو بطولهما ، وكان متعينا أن يكون عيد ميلادى فى آخر شهر ابريل ، وكنت قد راهنت بيتر على أنه لم يتح لى أن أحتفل بهذا اليوم . ووعدته بأنه يستطيع أن يحصل على ساعتى الذهبية اذا حل يوم ٢٧ أبريل دون أن نحتفل بهذا العيد وكانت الساعة فى حالة جيدة تستحق منه هذه المخاطرة .. وقد كان رهاننا على الساعة من ناحيتى ، وعلى خاتمه المنقوش عليه اسمه من ناحيته . وقال لى أنه لوصح ماتوقعته من عدم استطاعتنا الاحتفال بهذا اليوم ، فانه لن يترك خاتمه معى لقمة سائغة لليابانيين ينتزعونه من جثتى بعد موتى . وفى الحق أن أحدا منا لم يكن ليأمل فى أننا سنخرج من هذه الأدغال الى عالم الحضارة مرة أخرى .

وكان كل ما يعنينا ، أن نشق طريقنا لنخرج من هذه الأدغال منسحبين . وكنا نسير على غير هدى ، بعـد أن زحف اليابانيون وسدوا علينا منافذ الطريق . وقد خلفنا وراءنا كل معداتنا ، اللهم الا أسلحتنا التى نحملها ، والقليل من الماء والأرز .

وسقط منا الكثيرون اعياء ومرضا . وكنا نتركهم ، ولا نترك معهم الا بندقية وخمس طلقات . وكان من المقرر ألا نترك لهم غير طلقة واحـدة لنقص ذخيرتنا ، ولكننا تركنا لهم الطلقات الخمس لتستعمل ضد اليابانيين ، أو فى انهاء حياة بعضهم بعضا ، حتى لا يقعوا فى الأسر .

وكان هناك كثير من المصابين بالحمى وبالدوسنطاريا . وكنت أنا ممن اصيبوا بالدوسنطاريا ، ولكنها كانت خفيفة معتدلة ، ولم يكدر حياتي شيء ، بقدر تلك القروح التى بدأت تؤلمنى وترعى في جسدى ، حتى كانت تخترق طبقات بدنى لتصل الى عظامى .

وكنا ننام الليل الى جانب الطرق ، اذا وجدنا لها أثرا في تلك الأحراش ، غير عابئين بالبعوض ولا بالملاريا ، أو حتى بالوحوش المفترسة .

وكان الليل اشد وطأة على نفوسنا من النهار ، وبالذات اذا ما غلبنا النعاس . فقد كان لنا في النهار ما ندفع به عن انفسنا وحشية المكان الفاسية ، كانت هناك الصحبة وما تدخله على انفسنا من جلد على تحمل ما نقاسيه ، وكان هناك ما نشغل به انفسنا من حرص على ما معنا من قطرات ، أو من الزحف الى منحدرات التلال ، وقطع المسافات التى قد تقربنا من هدفنا . أما في الليل . ومع ما يكتنفك فيه من ظلام وسكون موحش ، فانك تشعر بضآلة شأنك ازاء ما يجسمه لك من مخاوف وسوء حال . وفيه كنا ندرك ان علينا أن نعتمد على انفسنا ، فلم يعد هناك جيش بريطاني . أو جيش هندى ، أو الجنرال الكسندر . وما اظن هذا الذى كنا نعيش فيه بأثقل وطأة من كابوس الأحلام المخيف . انك لا تشعر بالكابوس الذى يرسل اليك الرعب في ساعات نومك ، ثم تصحو لتجده حلما قد ولى ، بمثل ما تشعر به من هذا الكابوس الحقيقي الجاثم فوق صدرك .

وصحونا ذات صباح لنجد أن بيتر قد ذهب عنا . ثم وجدناه مقبلا علينا بعد مسيرة ميلين . وعلمنا منه انه قد خيل اليه في نومه ، اننا رحلنا عن المنطقة وتركناه ، فهب مذعورا ليلحق بنا . وحدث بعد ذلك ببضعة أيام أن أيقظنى أحد ضباط الصف وهو يصيح : « انني اراهم انظر ! » واشار الى الأشجار في ضوء القمر، وكان وجهه ينضح عرقا . ثم سألنى عن الوقت واستدار ليستسلم للنوم من جديد . ولما تحدثت اليه عن ذلك فيما بعد ، لاحظت انه لا يذكر شيئا عما كان منه .

وكان ينضم الينا من حين لآخر بعض الهاربين من الخدمة فى صفوف القوات المقاتلة الأخرى . وقد حوكم هؤلاء ، فيما بعد ، بالهند ، أمام مجالس عسكرية وأودعوا السجون . أما نحن فلم نهرب من الخدمة ، لأننا لم نجد ما نهرب اليه او منه ، ولقد حمدت الله فيما بعد اننا لم نترد فى هذا الخطأ .

وهكذا كنا نتقهقر ، وقد تملك منا المرض ونشتت شملنا .. وساءت حالنا ، ولم يتصادف أن قابلنا فى نقهقرنا يابانيا واحداً . اللهم الا من رأيناهم فى أحلامنا . انها تلك الأدغال الموحشة وهذه الشمس المحرقة التى كانت تطاردنا وتفت فى عضدنا . والله وحده يعلم كيف تيسر لنا أن نجتاز كل هذه المحن ، ولست استطيع أن أصور لنفسى كيف خرجت من كل هذا العذاب سليم العقل قوى الروح . لقد كنا ننتظر الموت فى كل لحظة ، وكنا نرى بخيالنا اليابانيين وقد عبثوا بجيشنا ولم يرعوا للموت حرمة ولكننا لم نمت .. ولاح لنا الأمل من بعيد فى معسكر عند حدود الهند . ومن هناك نقلنا فى العربات الكبيره الى قطار سكة الحديد . وسار بنا القطار يحمل خمسمائة جندى وضابط من المرضى والجرحى . وكأنى به سيجوب بنا انحاء الهند ، باحثا عن مستشفى يمكن أن يتسع لنا . وكنا نتخلص من موتانا بالمحطات التى نقف بها . وكان الأهالى يتجردون عن لباسهم الأعلى لنستعمله ضمادات لجرحانا .

وقضينا بالقطار ثلاث ليال طوال ، وكنا فى أشد أيام الصيف حرارة ، وكانت المراوح الكهربية معطلة . ورأيت فى حرارة الطقس مع رائحة العرق مع تلك الجروح ، بلاء لا يقل عما قاسيناه فى بورما من بلاء .

ووصلنا الى كاتشاتولا بعد ظهر اليوم الرابع ، ومن محطتها نقلنا الى المستشفى ، حيث أودعنا أسرتها ، ولم تكن الساعة قد وافت الخامسة ، وشعرت بأن الموت قد ابتعد عنى ، ولو الى حين عندما وجدتنى أستلقى فى فراشى الوثير وفى هذا الجو البهيج اللطيف ، وبين الممرضات فى ملابسهن البيضاء النظيفة .

وخيل الى أن هذا هو النعيم ، أو أن النعيم لن يكون أقل من ذلك . فتلك الأغطية البيضاء الوثيرة ، وملائكة الرحمة من المرضات غاديات رائحات ، وآلهة الطب وأيديهم في قفازاتهم الجلدية . كل ذلك لا يقل روعة عنه ، سيصعد الانسان الى السماء من دغل الدنيا مجهدا ملطخ الجسد ، وستتلقفه أيدى الملائكة فتزيل عنه كل ما علق به من وعثاء السفر وتعيده نظيفا بهيجا ، بعد أن تضمد جراحه ، وتخلصه من أوشاب روحه وما كان عالقا بها من حقد ومرارة وحزن ثم ينهض ليخطر بين الزهور والعيون الجارية ، نقى النفس عالى الروح ، هذا هو النعيم المقيم •

ولم تكن هناك أزهار ولم تكن هناك عيون جارية ، ولكن كانت هناك في هذا المستشفى الدعة والأمان ، وهما النعيم بالنسبة لى بعد كل ما قاسيت وعانيت . ولكم صحوت من نومى في بعض الليالى فجأة ، لاتحسس مسدسى في رعب تجمدت منه أطرافي ثم يتحقق لى أن ما رأيته وأثار الفزع لدى لم يكن أحد اليابانيين بل هو أحد أعمدة الشرفة خارج غرفتي ، فأعود الى فراشي مستلقيا في استرخاء الطمأنينة والأمان .

وظللت ملازما فراشي ثلاثة أسابيع كنت لا أغادره أثناءها الا الى مقعد بالشرفة لأسترخى وأفكر . ولم استطع جمع أشتات فكرى لأول وهلة . كنت اشعر انني في ناحية جسما ، وفي الناحية الأخرى عقلا . وجلست استعيد لنفسى ماضى الصبا الوادع الهادىء في بلادى ، ثم هذا الحاضر البغيض في ابشع صوره ، تلك المجزرة البشرية الدائرة في جميع انحاء العالم .

وقنعت من حالى بما أنا فيه ، ووددت لو استمر بى ذلك .. وطبت نفسا بجلساتي بالشرفة ادخن وافكر في أمن ودعة ، محتميا بها من أشعة الشمس المحرقة ، ومن سعير الحرب المهلكة ولم أكن اريد لنفسى أكثر من هذا . لا نساء ولا خمر ولا رقص ولا راديو . لا شيء من ذلك كله غير ما أنعم به من هدوء وبعد عن كل ضجيج . وهذا هو السبب في انني لم أكن اتعجل مبارحة المستشفى . الا انه كان يجب على أن افسح لغيرى مكانا ، فمنحت

اجازة لمدة شهر ورحلت الى سملا . وتسلمت ما تجمد لى من راتب وأجور ، وقضيت فى هذه البلدة وقتا جميلا فى بطن الوادى الذى يعلو عن سطح البحر ستة آلاف قدم بعيدا عن الجو الحار الخانق المترب ، تحنو علينا جبال الهملايا بقممها التى كستها الثلوج . ووفقت الى تابع لطيف المعشر يدعى باهادور يتكلم الانجليزية ، استطاع أن يفهمنى ويحيط بميولى ، وزادت مكانته فى نفسى ، لأنه كان يحترم نفسه ويحترم أسرته ولا يتحدث عنها الا بكل خير .

ومع كل مساء ، كنت أجلس فى حديقة الفندق ، أنعم بشراب الجن بالليمون ، داعيا الى الله الا ينقضى هذا الشهر أبدا . الا اننى فى الوقت نفسه كنت أتوق لرؤية أصدقائى ، وبالذات بيتر الذى كنت لم أره منذ ستة اسابيع ، بعد ان ترك المستشفى قبلى وسافر الى مدراس . وبدأت ادرك ، بعد تكرار الليالى والأيام الذى يبعث فى النفس الملل ، انى لم أخلق لأعيش بين السحب ، واننى اتوق الى الهبوط الى الأرض وما تضطرب به من حياة .

والانسان لا يملك من أمر نفسه شيئا ، وبالذات اذا كان هذا الانسان طيارا ، وكان قد آن الأوان ، ورحلت فى أوائل شهر سبتمبر الى دلهى ، واصر باهادور أن يصحبنى ليعتنى بأمرى .

الفصل الثانى

كنت أعرف اننى انتهيت كطيار ، ولم اكن آسفا لهذه النتيجة . وقد بدأ هذا معى فى بورما . بدأ باختلال ميزان بصرى اكثر من مرة ، وكادت طائرتى تتحطم بى . واعفيت من قيادة الطائرات ، وكنت اقف بالمطار أراقب زملائى وهم ينطلقون بمقاتلاتهم ، والحسرة تعتصر قلبى فى أول الأمر . ثم كانت مغامرة الأدغال بعد ذلك ، فأنستنى حنينى الى الطيران ، ولم يعد يعنينى من أمره اى شىء .

وامام لجنـــة الفحص الطبى بدلهى ، حاول قائد الجناح أن يخفف من وقـــع القرار النهائى على نفسى ، وهـــو يربت على كتفى قائلا :

ـ مهما يكن من امر ، فسنحاول ان نجد لك عمـــلا أرضيا مناسبا .

وكما سبق أن قلت ، فان مغامرة بورما قد غيرت من مشاعرى واتجاهات فكرى . ليكن ما يكون ومن يدرى الى متى ستستمر هـــذه الحرب فى أوربا وفى آسيا . وما أظن الا انها ستطول ، وسنقاسى منها الأمرين فى هذه السهول الجرداء بالهند ، وتحت حرارة هذه الشمس اللافحة . وأخيرا ابتسمت فى وجهه وهو يصافحنى ويسلمنى الوثيقة التى وقعها . وسألته عن اسم أحسن حانة فى دلهى فدلنى عليها وهو يهز يدى مبتسما .

وخرجت الى الطـريق أسرع فى خطاى وما أن شـــعرت بالاجهاد والعرق ينصبب من جبينى ، حتى ناديت احدى عربات «الطنجة» ، وأمرت سائقها بالتوجه الى حانة دافيكو . وسألتـــه أن يسير بى الهوينا ، وكأنه فهم عكس ما أريد فألهب ظهر جواده بالسوط ، واندفعت العربة تهتز بى يمينا ويسارا ، وحمدت الله عندما وصلنا ونقدته اجره .

ودلفت الى الحانة لأرى بيتر جالســـا مع ميرفين بنتلر .. وكانت مفاجأة مذهلة . ولم ندر كيف نبدأ الحـــديث . فقلت أخيرا :

ـ كان يجب أن اتوقع لقاءك فى احدى الحانات .

ـ اننى هنا لأننى وفقت الى احسن مكان يقدم فيه الويسكى .

ـ هكذا وفقت سريعا ؟.

ـ اننى هنا منذ عدة اسابيع .

وجلسنا نتبادل الحديث والأنخاب . وشعرت بارتفاع حالتى المعنوية ، ونسيت ســـملا ، ونسيت وحدتى ، وغمرنى فيض من السرور لأننى التقيت ببيتر مرة أخرى ، حتى ولو كان بصـــحبة ميرفين الذى لم أكن أميل اليه كثيرا . لقـــد صاحبنى بيتر فى

الطريق من انجلترا ، ثم فى بورما ، ثم فى ادغالها . ولم يكن بيتر قد تجاوز العشرين من سنى حياته . حيث كان فى طريقه الى جامعة جرينوبل ليتعلم اللغة الفرنسية عندما اندلعت نار هذه الحرب . ومن هناك حاول ان يعود الى وطنه ليلتحق بقوة الطيران الحربية ، ولكنهم قبضوا عليه فى اسبانيا بعد عبوره حدودها الشمالية عند جبال البيرينيز واودع السجن ستة اشهر . وما ان تقدم للخدمة العسكرية بعد ذلك حتى خذله الفحص الطبى فالحق بقوة مخابرات الطيران الحربى .

وكان يدعى بيتر ، ولكن كل من عرفه كان يفضل أن يدعوه بالجرنون بسبب شاربه الكث الذى كان يعتز به كثيرا . وكان يجب أن يبدو فى سلوكه اشبه بالسيد الانجليزى المهذب ، وهو دور يليق به بحسب مولده فعلا . كما كان يميل للكتابة ولكل ما هو ممتاز من حديث وطعام وشراب .

وانبرى ميرفين على حين غرة منا ، يعلن سخطه وضيقه بالمكان ، وانفجر غاضبا تهتز نبراته حقدا وكراهية. ولم يدهشنا ذلك منه ، لأننا سبق ان راينا من هذا الكثير . واستطرد قائلا

ـ ما كان أشد حمقى عندما وافقت على المجىء .

ـ المجىء الى اين ؟ .

ـ الى الهند طبعا ..

ـ آه ولماذا لم تطلب من وزارة الطيران أن تلغى أمر سفرك الى ما وراء البحار ؟ .

ـ لقد كان بوسعى هذا .

ـ حقا ؟ .

ـ اجل . فهناك اكثر من سبيل كنت أستطيع ان اسلكه ، ولكننى متردد ، وكثيرا ما أزج بنفسى فى المآزق نتيجة لترددى هذا .

ـ كان يجب أن تمر بما قاسيناه فى بورما .

ـ أعرف ما كان من امركم هناك . ولكننى ما كنت أطيق شيئا

مما تشير اليه وكان من الجائز ان أطلق النار على نفسى خلاصا من هذا العذاب .

ــ معك الحق .. لقد كان عذابا .. واى عذاب .

وهنا تدخل بيتر فى الحديث متندرا ، بأن ميرفين قــد قرر الانتحار احتجاجا على ســــجن المهاتما غاندى .. فقــال ميرفين محتدا :

ــ اننى سأنتحر احتجاجا على سجنى انا فى هذا البلد .

ــ وماذا به وماذا بالهند ؟ . اننا نحبها جميعا .

ــ قد تكون محتملة فى ظروف غير هذه . اننى لا محالة عائد الى وطنى .

فانبرى بيتر قائلا .

ــ انك ذاهب الى بومباى .

ثم التفت الى قائلا :

ــ اظنك لم تعلم بعد بذلك يا ميشيل ؟ اننا جميعا ذاهبون الى بومباى .

ــ أنى لك هذه المعلومات ؟.

ــ ان بومباى بلد جميل . فهناك فندق تاج محل وشـــــاطىء جوهو ، وهناك أجمل من وقع عليه نظرك من نساء . الا أن هذا كله ليس هوانسبب فى رحيلنا الى هذا البلد . اننا ذاهبون الى هناك لنتلقى دروسا فى اللغة اليابانية .

ــ ما أظن أنه سيكون بوسعى تعلم هذه اللغة .

ــ لا ، لا . لاتخذلنى . لقد زكيتك عند قائد الأسراب وأخبرته بأنك تعلمت اللغة الصربية فى ثلاثة أسابيع دون حاجة الى من يلقنك دروسها .

ــ ولكننى ما كنت أعلم بأن هناك لغة صربية .

ــ ولا قائد الأسراب ــ وهذا بالذات ما جعله يصدقنى ــ وما عليك الا أن تخبره بأننى كنت أبالغ فيعجب بتواضعك ، وترتفــع

مكانتك فى عينه . ما أظن الا اننا سنقضى وقتا طيبا معا ، بما فى ذلك ميرفين .

وبعد أن انتهينا من الشراب ، تركنا الحانة لنجد مكانا يمكن ان نتناول فيه غداءنا . واهتدينا الى مطعم صينى ، وسألنا الساقى أن يأتينا الطعام بأفخر أنواع النبيذ . ولكنه أشار علينا بأن النبيذ لا يتفق وهذا الجو الحار . وتبادلنا الرأى ووجدنا انه على حق فيما يرى واكتفينا بشرب الماء مع غدائنا المكون من الأرز والشريطة .

وتوجهت بعد الظهر الى مكتب القيادة حيث قابلنى قائد الأسراب فى قسم المخابرات . واعترفت له بأننى لا أعرف شيئا عن اللغة الصربية . وإن كنت ألم باللغتين الفرنسية والاسبانية . فراح يتحدث الى باللغتين فى طلاقة ، ثم استفسر منى عما اذا كنت راغبا فى تعلم اليابانية . وكان ردى بالايجاب وبأننى تواق الى ذلك . فأضاف اسمى الى قائمة كانت أمامه قائلا :

ـ ستبدأ الدراسة يوم الاثنين القادم . يمكنك أن تستقل قطار الغد .

الفصل الثالث

- ١ -

لم تكن الطريق بين دلهى وبومباى لتختلف عن سائر طرق الهند او تمتاز عنها فى شىء . ولم تكن لتجد غير مساحات شاسعة تمتد على جانبيه حتى الأفق . بأنهارها وغرينها وأحراشها . ولم يكن بالمحطات ما يغرى المرء بترك مقعده بالقطار .

ولاحظت على رصيف احدى المحطات التى توقفنا بها ، لافتة عليها اسم « دهانابور » ، وتذكرت أننى تعرفت بالمدرسة التى كنت

بها فى انجلترا « بنواب » هذه المقاطعة • وكنت أتمثل فى خاطرى أراضيه وممتلكاته مساحات عريضة من الأدغال والغابات ، بعض ما كنت أسمعه منه فى أحاديثه عن صيد النمور وغيرها من حيوانات ولكننى رأيت أن القطار يجتاز صحراء شاسعة تتناثر فيها القرى هنا وهناك فى غير نظام أو تنسيق • ومع ذلك فقد وقع بصرى على قصر منيف رائع ، علمت من مفتش القطار أنه قصر « النواب » الواسع الثراء • والذى يدعو اليه علية القوم فى الهند من حين الى آخر •

واقترح على ميرفين أن أكتب لصديقى لعله يدعونى لزيارته فى قصره • وأجبته بأننى أتهيب زيارة المهراجات والقصور الشرقية • ومهما يكن من أمر فقد عقدت النية على عدم محاولة شىء من هذا القبيل ، الا اذا ضقت ذرعا ببومباى

كان بمقصورتنا أربعة منا ، وكان بالأخرى المجاورة لنا ، ثلاثة ضباط آخرين فى طريقهم الى بومباى لتعلم اليابانية أيضا • وكان أحد هؤلاء ضابطا طيارا حاول أن يتظاهر أمامنا بمعرفته للغة الهندية عندما كان يصدر أوامره للحمالين بالمحطة • وشعرت لأول وهلة بالنفور منه • وكنت أخشى أن أكون قاسيا عليه فى حكمى هذا • حتى سمعت من بيتر ما فهمت منه أنه يشاركنى شعورى ، فقلت له :

ـ أنه يحاول بكل الوسائل أن يتقرب الينا •

وكان رابعنـــا بالمقصورة ماريو فارجاس ، حسن المظهر ، أرستقراطى النزعة ، لاتينى المنبت • وكان برتغاليا يتحدث الانجليزية بطلاقة تكاد تقترب من لهجاتنا • وعلمنا من ميرفين أنه التقى به من قبل فى دلهى • واكدلنا أنه من أحسن الشخصيات التى التقى بها فى هذه البلاد ، وراح يعدد لنا محامده ووجدتنى أتوجه اليه سائلا :
ـ لماذا التحقت بالقوات الجوية ؟ هل التحقت بها عن عقيدة ؟
فأجابنى :

ـ لقد صرحت لكل من أعرف بأننى مشترك فى الحرب اذا ما اندلعت نيرانها • وكان على ان اصون ماء وجهى وافى بوعدى •

فقال له بيتر :

ـ ترى لمن كان تصريحك ؟ الفتيات استوريا ؟.

فانبرى ميرفين مدافعا عنه :

ـ لا تصدقه . ان ماريو رجل مثالى من اخمص قدمه الى شعر رأسه ،

ـ لقد كانت مغامرة منى .

ـ ولكنك تستطيع أن تقلع عنها فى أى وقت تشاء وتعود الى البرتغال غدا لو كان الأمر كذلك .

ـ ليس الأمر بهذه السهولة . تقول أنك ستلتحق بالقوات الجوية ثم سرعان ما تنكص على عقبيك وتهرب من الميدان لأنك لم ترض عن الحرب .

ـ لو كنت مكانك لفعلت ذلك . بل واننى لفاعله . الى الجحيم هم وقواتهم الجوية وهذه الحرب التى لا أومن بها .

ـ سمعتك تردد هذا من شهور .

وتدخل بيتر قائلا :

ـ انه كاد يفقد عقله .

فعقب ماريو قائلا :

ـ انها حرارة الشمس .

وجلسنا ندخن فى سكون بعد أن احتسينا قليلاً من الخمر .

وما كاد الليل ينتصف حتى قام كل منا الى فراشه . واضطجعت

فى سكون الليل أفكر مع حركة القطار الرتيبة وقد استقرت عيناى بسقف العربة ، لم أنام على هذا الفراش فى عربة هذا القطار الذى يقطع فيافى الهند من دلهى الى بومباى ؟ ثم استدرت فى فراشى بعد ان أجهدتنى شتى الفكر ، واستسلمت للنوم لأريح ذهنى المكدود ..

الفصل الرابع

- ١٠ -

وصلنا محطة بومباى بعد ظهر الجمعة • وتوجهنا الى احدى الوحدات العسكرية القائمة بضواحيها • واستقبلنا أركان حرب الوحدة مرحبا ، وأمر لنا بسيارة نقلتنا الى فندق بشارع هاريسون تديره امرأة تدعى مس جاكسون ، فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها ، وسيمة جذابة لم تزل تفيض حيوية ونشاطا • ولاحظت أن الفندق نظيف الأثاث وقد زود بالمراوح الكهربية فى كل قاعاته وغرفه • وما أن دلفنا الى الردهة حتى أسر فينويك ، ضابط الطيران المتعجرف ، فى أذنى قائلا :

- بصفتى الضابط الأعلى ، من حقى أن يكون لى غرفة مستقلة ، غير أنه لا مانع لدى من أن تشاركنى هذه الغرفة •

فقلت له :

- شكرا • لقد اتفقت مع بيتر على أن نشترك فى غرفة واحدة •

- لا بأس • فليشترك معى فارجاس •

وارتقينا الدرج ، ولم تكن هناك حجرات مخصصة لشخص واحد وكان بكل حجرة عاملان • واحتل بيتر معى احدى الغرف ، واحتل ماريو وميرفين أخرى . أما فينويك فقد سألته مس جاكسون أن يتبعها فى لهجة تكاد تكون أمرا ، الى غرفة مزدوجة كان بها ضابط قد وصل حديثا من كراتشى . وبعـــد أن اطمأنت على راحتنا واحاطتنا علما بمواعيد الطعام ، تركتنا وانصرفت .

وقام باهادور - الذى لم يتخل عنى طوال هذه الرحلة - بنقل حاجياتى من حقائبى وأعدها اعدادا منظما حسب استعمالها ، ثم ذهب الى الحمام ليعده لى . وظل قائما على خدمتى حتى هبطت الدرج لتناول العشـــاء ، ثم انصرف ليبحث له عن سـكن بحى السوق .

- ٢ -

وتوجهنا فى اليوم التالى الى المدرسة لمقابلة أولى الأمر بها .
وكانت عبارة عن شقتين فى احدى العمارات الحديثة التى تطل
على الميناء . ومن نوافذها كنا نستطيع ان نشاهد ناقلات الجنود
القادمة من انجلترا . ولطالما كنا نقف بهذه النوافذ ، فيما بعد ،
نتأمل ما فى الميناء من عدة الوطن ، منصرفين عن التفكير فى اللغة
اليابانية واليابانيين .

وكان ناظر المدرسة بريجادى متقاعد عالى الثقافة لطيف المعشر ،
أنيقا محافظا . وعلمنا أنه قضى فى اليابان الكثير من سنى حياته
التى تقترب من الخمس والستين . ولطالما استمعنا اليه وهو
يتحدث فى اطناب عن الشعب اليابانى وعن نقائصه وفضائله حديث
العالم الخبير .

وجلسنا فى قاعة الدرس نستمع اليه ، وبدأنا بالسؤال
التقليدى عن مدى مانلم به من اللغة اليابانية . ولما أدرك من اجابتنا
اننا لا نعرف منها شيئا ، أخبرنا بأنه يحسن بنا أن نبدأ دراستها
من أول الطريق . وشرع فى اختبار مدى ما يعلق بأذهاننا منها
بمجرد كتابته على السبورة ، ثم ازالته فورا وهكذا ، حتى قرر اخيرا
أن ننقسم الى مجموعتين ، بعد أن عرف مقدرة كل منا . وكنت فى
رأس المجموعة الأولى . وكان معى فى نفس المجموعة فينويك وبيتر
وبعض الضباط الآخرين . أما ميرفين وماريو فكانا فى مجموعة
أخرى .

وأخيرا أعلننا البريجادير بأنه سيقدمنا الى المدرسين . وتقدمنا
الى القاعة العامة حيث وجدنا أربعة من اليابانيين جالسين يطالعون
الصحف . وما ان وقع نظرهم علينا ، حتى نهضوا عن مقاعدهم
وانحنوا لنا محيين . وعلمنا انهم كانوا بالهند عندما اعلنت الحرب .
وصافحناهم يدا بيد . وسمعناهم يرحبون بنا بالانجليزية .
وسمعت البريجادير يقول :

ـ سيكون عدد المدرسين خمسة بعد بضعة ايام . انهم فى الطريق الينا من انجلترا . ستبدأ الدراسة يوم الاثنين صباحا . أرجو أن يوافقكم بدؤها فى التاسعة والنصف صباحا ! .

- ٣ -

واننى وان كنت لم اتوقع وجود مستر هيدلى بمكتبه يوم الأحد الا اننى توجهت الى رقم ٢١١ بشارع كورنو اليس لعلنى أجده مصادفة . وكنت قد أعطيت اسمه وعنوانه قبل مفادرتى انجلترا ولا اعرف كيف ظل الأسم والعنوان عالقين بذاكرتى ، بعد . فقدت المذكرة التى دونتها بها فى بورما .

وكنت قد سمعت عن هذا الرجل الكثير . الكثير مما يجعله فى مصاف القديسين وكنت ارجو ان اجد فيه عونا كبيرا على تعريفى بكل ما فى بومباى . وفعلا لم أجد مستر هيدلى فى مكتبه . ووجدت فى مقعده شابا هنديا رحب بى واخبرنى بأن مستر هيدلى سيعود فى الثانية عشرة . فانصرفت لأعود فى الموعد المعين .

ورحت أقطع الوقت بالتسكع فى الطرقات ، بين اناس لا اعرف عنهم شيئا . كنت غريبا بكل هذه الكلمة من معنى . لم أكن اعرف كيف يتعبدون ولا كيف يحبون وكيف يدخنون ولا كيف يلهون الى غير ذلك من عادات ، وأسرعت اعود ادراجى الى مكتب مستر هيدلى ، الذى وجدته جالسا الى مكتبه ، فرحب بى وقدم لى مقعدا بين أكوام من الكتب فى كل مكان ، وفى غير نظام ، بعكس رجال الأعمال الانجليز ، الذين يعرف الناس عنهم ذلك .. ثم سألنى من اكون .. فأجبته :

ـ ميشيل كوين .

ـ كوين ؟. انى لم أعرف أحدا بهذا الاسم من قبل . من أى سلاح انت ؟ فأنا لا أعرف كيف أفرق بين حللكم الرسمية .

ـ ضابط بالقوات الجوية .

ـ حسن . فلتمكث لتناول الغداء معى . كيف عرفت عنوانى ؟ .

ـ لقد اعطتنى مسز بوستوك عنوانك ،قالت لى انكما تعارفتما فى برمنجهام .

ـ مستر بوستوك ؟. اننى لا اذكر شيئا عن هذا الاسم .

ـ كان اسمها بيريز فورد قبل الزواج .

ـ آه . تذكرت . لوسى بيريز فورد . انها سيدة فاتنة ـ لقد كنت معجبا بها فى يوم من الأيام .

ـ هى صديقة لوالدى .

ـ لابد وانها قد اقتربت من الخمسين الآن . ولكننى لا افكر فيها الا كابنة العشرين . وهل كان والدك من المعجبين بها هو الآخر ؟ .

ـ لست أدرى .

ـ ومن هو بوستوك ؟. هل كان زميلها فى السيرك ؟.

ـ اظن انه كان يعمل فى صناعة الدراجات .

ـ ووالدك ؟.

ـ يعمل فى الاعلان .

ـ لعله قانع بعمله .

ـ اعتقد ذلك .

ـ هل قابلت مساعدى ؟.

ـ نعم . عندما جئت فى الصباح .

ـ انه من طبقة المنبوذين . او قل طبقة المظلومين . وسنهم يشقون طريقهم فى الحياة الآن . وسيكون فى خدمتك اذا اردت والآن الى الغداء ..

وبعد أن فرغنا من تناول الطعام ، خرجنا معا الى شارع المهاتما غاندى فى اتجاه فندق تاج محل . وقلت له ونحن فى الطريق :

ـ خبرنى بشىء عن الهند .

ـ عن الهند ؟ بكل تاكيد . مساحتها حوالى مليون ونصف ميل مربع . وعدد سكانها حوالى أربعمائة مليون نسمة . وبها حوالى خمسمائة الف قرية ، وثلاث وثمانون مدينة كبيرة .

ـ لا . لا . لا أريد احصاءات .

ـ يضع الهندوس فوق رءوسهم العمامة ، ويضع المسلمون الطربوش ، أما البرهميون فيضعون القبعة فوق رؤوسهم ، وهى أشبه ماتكون بحافر البقرة . وهم يدفنون موتاهم فيما يسمونه بأبراج أو « بروج الصمت » وتستطيع أن تراها هناك اعلى تلال مالابار . وماهى الا نصف ساعة حتى تاتى عليها النسور . وهو إجراء صحى سليم

ـ أهذا كل شىء ؟.

ـ هل تريد أن تعرف كل شىء عن الهند ؟.

ـ أجل . لأننى سأعيش هنا .

ـ اذن فما عليك الا أن تقضى فى الهند ثلاثين عاما حتى يتيسر لك أن تلم بشىء عن الهند ، والآن أستودعك الله لأنى على موعد . هيا تمتع بشبابك انه أيام من العمر لا تعوض .

- ٤ -

واستلقيت فى فراشى أتأمل المروحة الكهربية ، وافكر فيما سمعته عن ايام الشباب ، محاولا أن أتبين فى حاضر شبابى هذا العمر الذى لا يعوض . أى شباب هذا واى جمال أحاط به لقد كنت فى العشرين منذ خمس سنوات عندما انتهيت من دراستى . وها أنا الآن ـ أجدنى مضطرا للتسليم بالأمر الواقع ، فلم أعد بعد هذا الشاب الذى يخرج الى الحياة وقد تفتحت أمامه آفاقها . لقد اقبلت الحرب ، وها هى لم تنته بعد ، وما أن تضع أوزارها حتى اكون قد أصبحت رجلا فى مقتبل العمر . ان شبابى قد انتهى فى عام ١٩٣٩ مع بداية هذه الحرب .

وبثت فى مكانى . وقد استقرت عيناى على المروحة . وشعرت فى أعماق نفسى بفراغ كبير . فراغ ممتزج باحساس من الضياع

فراغ لم اشعر به من قبل عندما كنت اجلس الى المدفأة اقرأ كتابا او عندما يخيل الى انني مولع بشيء ما . فراغ لم أشعر به في اية لحظة من لحظات حياتي في انجلترا . هذا الفراغ ، الذي لازمني الاحساس به هنا في الهند بعد ان اجتزت حومة الوغى ، هو الذي دفعني للشراب لينسيني ما أنا فيه من ضياع ، وهو عندي تسليم بالهزيمة على طول الطريق .

وتجسم الأمر لي . وبدا بشعا خطيرا . وفكرت في تلك الأيام والشهور والأعوام . التي تنسلخ من عمري ولن تعود . ان الأمل العريض الذي كنا ننشده ايام الشباب الأولى لايجعلنا نشعر حتى بهذا الفراغ ان قدر علينا . وبلوغ الرجل منتصف العمر يزيد من قيمة هذه الايام ، ويجد نفسه وقد بدأ يحصيها ليعرف كم تبقى له منها . ان كل ما تبقى لي بعد هذا الذي فقدته من عمري هو الايمان الصحيح الذي يملأ فراغ قلبي . هذا الايمان الذي يملأ قلبي اشبه بقبس من نور الله . انني في اشد الحاجه اليه الآن .

وحاولت أن أتجه بتفكيري هنا وهناك ، ولكنه كان يعود بي ليستقر في حاضري . في هذه الحرب التي لا يعرف الا الله متى ستنتهي . وفي انني لم اعد بعد في عنفوان الشباب . وفي أنني لا استطيع ان اكيف حياتي كما يحلو لي .

انني الآن بكياني كله ، جسما وعقلا ، حيث قدر لي ان اكون « لايسعني الا ان اقول من اعماقي هذا هو مصيري الذي لا استطيع الفكاك منه » ! .

وأقبل بيتر علي قائلا :

ــ ترى لماذا أراك هكذا محزونا يائسا ؟ انني ما رايتك هكذا من قبل ، ولست أحب لك ذلك . هيا بنا الى الخارج حيث الحركة والحياة . وتستطيع ان تفعل مثلي فتغمض عينيك عن مآسي الحياة هنا . ولحسن الحظ اننا لا نفهم شيئا مما يتحدث به هؤلاء الناس .

ــ انك دائما هكذا . ثم ستعود لتحاضرني عن حالة هؤلاء القوم العقلية الى آخر ما تزعمه من مفاهيم .

ـ ولم لا يكون احد اجدادى الأولين من هؤلاء . لاعلينا فلنوفر على انفسنا هذا العناء وتقبع فى عقر دارنا هنا بالفندق ، حيث نجد النظافة والجمال وكل ما يباعد بيننا وبين تلك المخلوقات ـ واذا اردت ، فهيا بنا الى فندق تاج لنتناول طعام العشاء ، ونحتسي قليلا من الخمر ، ونتجاذب أطراف الحديث ، وتسرد على مسامعي مغامراتك السابقة مع النساء ، وتستعيد نشاط ذهنك وترفع من معنوياتك .

الفصل الخامس

ـ ١ ـ

وبدأت احب تعلم اليابانية . ويرجع ذلك ، فى معظم أسبابه الى شخصية البريجادير المحبوبة ، والذى كان يجعل من ساعات الدرس ، لحظات محببة الى نفوسنا ، متنوعة متغايرة الألوان ـ

وكان واسع الاطلاع ، يلم بالكثير من ثقافة اليابان وحياتها الاجتماعية . وكان يحدثنا كثيرا عن اليابانيين وعن عاداتهم ، وعن كيفية تبادلهم التحية عند اللقاء . وكان يقلد لنا حركاتهم وطريقة انشادهم . ولما انتقل الى الحديث عن المرأة اليابانية قال :

ـ ولكن مس وبى ستحدثكم بكل شيء عنها . انها المدرسة الجديدة التى سبق ان اخبرتكم بأمرها . ومن المنتظر حضورها فى الأسبوع القادم .

والتقيت فيما بعد بالبريجادير فى نادى الريكيت ، حيث تبادلنا الحديث عن مدى ما تقدمنا به فى تعلم اليابانية ، وابدى لى اغتباطه بتقدمنا فى دراساتنا . واطرى سرعة المامى بمفرداتها قائلا

ـ ان ماقطعته من شوط قد يعجز عنه الكثيرون . ستستفيد من ذلك فيما بعد الحرب .

ـ بعد الحرب لن اكون بحاجة اليها .
ـ اذن الا تنتوى الذهاب اليها ؟.
ـ ربما لقضاء عطلة . اما ان اعيش هناك ، فليس فى نيتى أى شىء من هذا القبيل .
ـ من يدرى · ان الحياة كلها مفاجآت .
ـ ساقضى بقية أيام حيـــاتى فى انجلترا أو فرنسا ، حيث يفهمنى الناس هناك فأحبهم ويحبونى .
ـ ان اليابان لا تخلو من خيار الناس .
ـ اننى متحامل عليهم . لقد قاتلتهم فى بورما . ثم طاردونا فى ادغالها ومجاهلها . ولطالما رايتهم فى أحلامى أشبه بكابوس مزعج لا تنسى أنهم قتلوا شقيقى فى الحرب .
ـ كان ذلك فى هونج كونج · لقدارتكبوا هناك كثيرامن أعمال القسوة والوحشية .
ـ أجل . انهم يستطيعون ذلك . وبالذات عنـــدما يكونون سكارى . انهم غلاظ القلوب لا يعرفون رحمة فى الحرب .
ـ ولذلك تجدنى لا أحبهم .
ـ بما فى ذلك الذين يعلمونكم اليابانية ؟.
ـ أجل . فهم يابانيون أولا وآخرا .
ـ مس وبى هى الأخرى يابانية . ما اظن انك ستكرهها هى الأخرى .
ـ مهما يكن من أمر ، فانى أعدك بألا أظهر شيئا من شعورى هـذا ..

ـ ٢ ـ

ورأيت الباخرة تصل فى المساء . واسـتقرت فى الميناء شامخة كالطود ، عظيمة ضخمة . وتأملتهـا من خـلال منظارى ، ورأيت على سطحها آلافا من الجنود البريطانيين . ثم رخى الليل سدوله واكتنفها ظلامه ، فلم نعد نرى منها الا أنوارها .

وكانت الباخرة لم تزل فى مكانها عندما اقبل الصباح .. ووقفت اتأملها من نافذة قاعة الدرس ، ورايتها تتحرك فى عظمة وجلال ، حتى اختفت خلف النصب الحجرى القائم عند مدخل الميناء ، والذى يطلقون عليه « بوابة الهند » ..

- ٣ -

اقبلت علينا فى صحبة البريجادير . وكان البريجادير قد قال لنا من قبل :

ـ ان مس وبى صينية الاسم فقط . وهى يابانية الأصل . ولكنها تتسمى بهذا الاسم لظروف خاصة بها .

ـ وكنا نترقب حضورها جميعا ، لأن أحدا منا لم يكن قد رأى امرأة يابانية من قبل .

حضورها جميعا ، لأن أحدا منا لم يكن قد رأى امرأة يابانية من قبل .

وران علينا صمت مطبق ، ورحنا نتأملها وهى فى مكانها بجوار البريجادير تخفض من بصرها فى حرج من أن تلتقى عيناها باعيننا التى تحدق فيها . وكانت رشيقة القوام ، ترتدى ثوبا صيفيا بسيطا . وقال البريجادير يقدمها الينا :

ـ ها هى مس وبى .

فألقينا اليها بتحية الصباح . وبادلتنا التحية مصحوبة بانحناءة يسيرة تأدبا بحكم العادة .

واستطرد البريجادير قائلا :

ـ لقد قطعت مس وبى كل هذه المسافة من انجلترا لتساعدنا.

ثم ابتسم واحتل مقعده ودعاها للجلوس . فابتسمت واحتلت مقعدها بجواره .

وسرت بين الحاضرين موجة اعجاب بها ، لقد اجتازت مس وبى امتحانها الأول بنجاح . كانت جميلة . كزهرة نضرة فى حقل موحش من الطلبة والكتب والمناضد والسبورة السوداء . وظلت أبصارنا عالقة بها لبرهة قصيرة واخيرا سمعت بيتر يهمس فى اذنى قائلا :

ـ انها رائعة !
ووافقته متحمسا على رأيه . فاردف قائلا !
ـ يا لها من فصول دراسية ! .
ـ حقق الله آمالك .
ـ متى سيزايلها خجلها ؟ .
وكان من الطبيعى أن تشعر بالحرج وبالخجل امام عشرة رجال يحملقون فيها عشرة رجال لم يقع نظرها عليهم قبل تلك اللحظة .

وبدأ البريجادير الدرس ، بما ألقاه علينا من تعليمات فى أحسن السبل لمتابعة ماستلفننا اياه مس وبى . ثم تركناوانصرف وبعد ذلك سمعناها تقول لنا باللغة اليابانية :
ـ اذا تكرمتم بتوجيه أية أسئلة الى ، سأجتهد أن أجيبكم على ما تسألوننى اياه .
فسألها أحد الضباط :
ـ هل قضيت رحلة طيبة ؟ .
وأجابته :
ـ شكرا على اهتمامك بذلك . لقد كانت رحلة طويلة . حاولت أن أخفف من وطئتها بقراءة الانجليزية .
وكان أمامها سجل بأسمائنا .
ـ الثانى بعده ؟ . كوبين أليس كذلك ؟ .
وكنت أحاول أن أعد سؤالى مستعينا بالقاموس .
ـ هل حقا ما يقال عن الأزواج اليابانيين ، ومن انهم عندما يعودون الى منازلهم سكارى ، يجبرون زوجاتهم على الجلوس عند أقدامهم لخلع أحذيتهم ؟ ..
فهزت مس وبى رأسها نفيا وهى تضحك فى رقة وخفر .. ثم أردفت ملحا فى توجيه سؤالى :
ـ أحقا ما يقولون ؟ .
ـ بماذا أجيبك ؟ انه لسؤال عجيب ! .
ـ أم لعلك لا تعرفين ؟ .
ـ أظن انهم يفعلون هذا أحيانا . بعده ؟ .

ثم راجعت قائمة الأسماء :
ـ أهو فينويك ؟ .
وفوجئت بأن أرى فينويك يستشيط غضبا ويجيبها محتدا :
ـ أجـل ..
ـ هل لديك سؤال ؟.
فأجابها بالانجليزية :
ـ ليست لدى أسئلة ما . ولـكن هناك مسألة اريد أن أوجه نظرك اليها .
وضرب المنضدة بيده ، ثم استطرد :
ـ اننا جميعا من الضباط . ولقد اعتدنا أن ننادى برتبنا .. واذا كنت تجهلين رتبا فما عليك الا ان تستعملى كلمة مستر على الأقل .
وخيم السكون على قاعة الدرس ، وجزعنا مما راينا وسمعنا واعتذرت مس وبى ، فى رقة ، بأنها سمعت البريجادير ينادينا بأسمائنا مجردة عن الألقاب والرتب . ولاحظت ان الدموع تكاد تطفر من مآقيها . واستدرك بيتر الأمر لينقذ الموقف قائلا :
ـ نرجو أن تطول اقامتك بيننا ، لأننا قد سعدنا بقدومك .
وقد تعمد ان يضمن هذه الكلمات العذبة كل ما يستطيع ان يعبر به فى لهجته عن عدم تضامننا مع فينويك فيما بدا منه من خشونة وقحة .
ـ شكرا . اننى غير جديرة بكل هذا الاطراء ، شكرا جزيلا .
وبعد أن انفض الدرس لم يحاول احـــد منا ان يتحدث الى فينويك . وخيبنا ظنه فيما كان يمنى نفسه به من تعليقنـا على موقفه الذى كان يظنه مجيدا فى الدفاع عن حقوقنا . وتركناه يتصرف بمفرده .
وكانت أعصابى لم تزل ثائرة مما حدث . فاعتذرت لزملائى باننى ذاهب فى جولة ، وتواعدنا على اللقاء بالفندق . ورايت بعد مسيرة بضع خطوات أن اعرج على نادى الكريكيت لأتناول كأسا من الخمر يهدىء من ثائرة نفسى . فعدت أدراجى ، وما أن اقتربت من المدرسة حتى رايت مس وبى مقبلة فى اتجاهى ، فقلت لها :
ـ هل أنت فى عجلة من أمرك ؟.

فتوقفت وحملقت في وجهي في دهشة وهي تقول :
- معذرة ؟ لست ادري لماذا أسرع هكذا .
- لعلك تريدين أن تسرعي للابتعاد عن المنوصة ؟.
- كلا . ارجوك الا تفكر في شيء من هذا القبيل .
- لعلك أسأت الظن بنا ؟.
- انك تستطيع أن تتكلم اليابانية بسهولة بالرغم من أن دراستك لها لم تزد عن شهر فقط .
- انني لا أعني اجادتنا لليابانية ، انني أعني سلوكنا .
- ماذا عن سلوككم ؟.
- ما كان من زميل لنا بشأن تجريدنا من رتبنا .
- ان الخطأ كان من جانبي .
- ولكن احدا منا لم يهتم بذلك .
- لقد كانت اول تجربة لي من هذا القبيل . ولم يكن من اليسير على أن اواجه كل هذا العدد من الضباط .
- هذا العدد لم يزد على العشرة .
- لقد بدا لي لأول وهلة أنه مائة .

وعندئذ أقبلت عربة الفاري وتوقف بها قائدها ينادي :
- غاري .. يا صاحب ؟.

وعرضت على مس وبي ، ان اذهب بها الى حيث تشاء . وعلمت منها انها في طريقها الى فندقها . ولكنها اصرت على الا تكلفني هذا العناء . واخيرا اصطحبتها معي في الفاري الى فندق الماي فير الذي تقيم به .

كانت هذه اول مرة منذ شهور تجلس فيها بجواري امرأة . وان هذه الشهور لدي اشبه بعامين . وشعرت بفيض من الغبطة والسرور . ورحت اتأمل جمال وجهها الدقيق وسواد شعرها ودقة اناملها . وتواترت بخاطري شتى الفكر ، لو ان هذا العالم بدون نساء ، كيف يستطيع المرء أن يعيش فيه ؟ ! . بل كيف يكون شعوره في عالم ليس فيه نساء ؟ ! وبدأت أشعر بكياني . وفجأة

تبادر الى ذهنى انها يابانيـــة . وانا أكره اليـــابانيين وأمقتهم . وتخيلت حديثا دار بينى وبين بيتر يلومنى فيه على نزعات نفسى ورأيت أخيرا أن اقطع حبل هذه الأفكار بالحديث فقلت لها :

ـ ان ركوب الفارى خير من ركوب الطونجا فى دلهى .

وهكذا دار بيننا حـديث عن الهند ، وعن أهل الهند ، وعن بؤس شعبها ، وعلمت منها انها لم تزر الهند من قبل . وعرضت عليها أن نعرج على السوق قبل أن تعود الى فندقها فقالت لى :

ـ أتعرض على ذلك جادا ؟.

ـ ولم لا ؟. انه ليسرنى أن نذهب معا .

ـ هل أنت واثق من انك لم تتسرع فى دعوتك لى ؟.

ـ ماذا تعنين بربك ؟ ! .

ـ اعنى اننى يابانية .. أم لعلك قد نسيت ذلك ؟.

ـ كلا . ولـكنك معلمتى قبل كل شىء .

ـ اذن هيا بنا .

وأمرت السائق بالتوجه الى شـــارع تشاندرا جوبتا . وعلى ناصيته ترجلنا من الفارى . وعلى الجدار المقابل لنا . وقع نظرى على الاعلان الـكبير الذى كنت أراه فى كل مكان من الهند .

كان الاعلان لوجه يابانى ـ وجه يابانى يبتسم ابتسامة صفراء بغيضة تكشف عن أسنانه وعن عينيه القاسيتين وعن وجهه المعبر والى جانب الصورة كتب بالخط العريض « حـــذار من قنـاع الصداقة الزائف ، انه قد يخفى خيانة اليابانيين وغدرهم » .

وتأملت وجه مس وبى ، وأدركت أنها قد رأت ما رأيت .. ثم اطرقت برأسها الى الأرض واستدارت وتقدمتنى الى السوق. وبدأنا جولتنا . كان كل شىء يبدو جديدا بالنسبة لها . فـكانت تقفز من هنا لهناك فى خفـــة الطفل المرح بمـــا يرى . ورحت أتأملها معجبا مأخوذا . وبدأت أدرك انها أجمل من وقعت عليـه عيناى . ونسيت أنها يابانية ، ولم أعد افكر فيها الا انها امرأة .

وبعد أن انتهينا من جولتنا ، شكرتنى وكررت شكرها كما لو كنت أسديت اليها معروفا كبـــيرا . واستقلت هى أول غارى صادفنا الى فندقها . ثم توجهت الى فندقى بدورى .

الفصل السادس

وبعد أن استقر بي المقام في غرفتي بالفندق ، جلست ادخن لفافة تبغ في هدوء . ونعمت بالهدوء بعد كل هـذا الصخب .. ونعمت بجو غرفتي النظيف . وطاب لي المقام ، وطاب لي ماحلقت فيه من خيال . فأشعلت لفافة أخرى ، وواصلت تفكيري فيما كنت مستغرقا فيه من استعراض لكل ما مر بي .. وما أن انتهى بي المطاف الى حيث أجلس ، حتى نهضت عن مقعدي وارتديت ثيابي عاقدا العزم على اللحاق ببيتر في نادي اليخت ، بناء على المذكرة التي كان قد تركها لي بذلك .

وهناك وجدته يحتسي الخمر مع ميرفين وماريو ، وبعـد أن شاركتهم شرابهم ارتقينا الدرج لنتناول طعامنـا . وجلسنا الى المـائدة وقدم لنا الطعام والنبيذ ، ثم بدا بيتر الحديث قائلا :

ـ بدأت أحب بومباي .

فقال له ميرفين .

ـ وهـذا هو ما أخشـاه . فقد بدات أنا الآخر أرتاح الى مقامي بها .

ـ ماذا تعني بقولك هذا ؟.

ـ انني لا أحب أن أعيش على هامش الحياة .

ودار الحديث بيننا جميعا في هذا المعنى ، حتى أشار ماريو من طرف خفي في حديثه الى مقابلتي لمس وبي .. فقلت له :

ـ لقد كان الأمر بطريق الصدفة .

ـ وحتى ركوبكما الفاري ؟.

ـ لقد عرضت عليها ذلك تأدبا .

ـ أو كنت تفعل ذلك لو لم تكن جميلة ؟.

ـ أو تعتقد انها جميلة ؟.

فانيري بيتر مجيبا :

ـ وهل في ذلك من شك . انها جميلة فاتنة . انني لم أصادف جمال عينيها من قبل .

ـ لعلكم تحسدونني على صحبتها لي .

ـ بكل تأكيد . واني لآسف لأن ما فعلته انت لم يبدر بخلدي .

ـ أنا لم أعد لشيء مما حدث .

وهنا تدخل ميرفين في الحديث قائلا :

ـ عليك ان تلزم جانب الحذر .

ـ انها لا تفترق في لونها عني وعنك . ثم انني لفي عجب من كل هذه الزوبعة التي تثيرونها . ان الأمر لم يتعد رغبتي في الاعتذار اليها عما بدر من فنويك .

وتعمدت ان اشتد في لهجتي مرتفعا بنبرات صوتي :

ـ أنا معك في ذلك . لقد تجاوز الحدود فعلا .

وهنا تدخل ماريو قائلا :

ـ هذا التعالي هو الذي سيشق له طريق المستقبل .. سترونه في يوم ما قائد أسراب ، وسنظل نحن ضباطا عاديين .. ان حدة طباعه وانفته لن تنقص من قدره .

ودار بيننا حديث طويل حول بعض العقليات التي لم تزل متأثرة برواسب الماضي ، وتبادلنا وجهات النظر ، وافترقت آراؤنا حينا ، والتقت حينا آخر . وغلبت على بعضنا النعرة المتعالية القديمة ، وأدليت بدلوي في المناقشة ، وقلت لزملائي ان الحرب قد غيرت الأوضاع ، وان الأذهان قد تفتحت لما لم تكن متفتحة له من قبل . وسمعت ميرفين يقول تعقيبا على آرائي متهكما :

ـ لقد انقضى عهد المبادىء والقيم . ها هو ميشيل لا يرى مانعا من أن يدعو احد الهنود ابشاركه طعامه ، وها هو اخيرا يقع في حب فتاة يابانية .

فالتفت اليه وقلت له :

ـ انك مخمور .

ـ كلا .. ان ما احتسيه من خمر لا يذهب بالعقل . انني في

كامل وعيى . وليس أدلّ على ذلك من انني أستطيع ان اتبين في ملامح وجهك انك مدله بحب معلمتنا الجديدة .

ـ هراء .. اذ انني لا يمكن أن اخـاطر بهذا . انها جميلة ، ومثلها لا يمكن أن تكون خالية الفؤاد .

وهنا تدخل ماريو قائلا :

ـ اجل .. انه الحق بعينه .

وخيل الى انه قال ذلك بلهجة الواثق مما يقول . فسألته :

ـ هل تعرف شيئا على وجه التحديد ؟ .

ـ اذا ما تلفت خلفك ، فستجد ما تنشده منى . انها تجلس هناك .

فاستدرت لأجدها جالسة الى منضدة تبعد عنا قليلا .. نعم كانت هى مس وبى ، وأمامها رجل يضـع عوينات سمـيكة على عينيه ، عريض الجبهة ، أقنى الأنف ، رقيق الشفتين .. فقلت معلقا :

ـ لعل فى ذلك ما يقنعكم بأننى لا أتعقب الفتـاة اليابانية او أعلق على علاقتى بها أهمية ما .

الفصل السابع

ـ ١ ـ

توجهت فى صحبة بيتر وماريو الى ميدان سباق الخيل ، بعد ظهر يوم السبت التالى . ورفض ميرفين أن يشاركنا لأنه كان فى حالة من حالات يأسه وقنوطه ، التى كانت تعاوده من حين لآخر .. بل ولعله كان يبالغ فى ذلك حتى ينتهى به الأمر الى حد الجنون .. الجنون الذى قد ينقله من الهند الى انجلترا ..

وفي الحق أن ماريو هو الذي أوعز الينا بالذهاب الى ميدان السباق ، لعلنا نجد فيه ما يجدد نشاطنا ، ويذهب عنا ما نعانيه من ملل وضيق . واشتد حماس بيتر للاقتراح لأنه كان يطمع في الربح ، فضلا عما في مشاهدة السباق من اثارة . اما انا فقد صحبتهما مجاراة لهما ، وان كنت أفضل أن اقضي وقتي في القراءة والدرس . بيد انني كنت قلقا لا أستقر على قرار ، وكانت تتنازع نفسي تلك الخواطر التي سبق أن استبدت بها في سملا .

وبالرغم من حرارة الطقس ، الا أن ميدان السباق كان يعج بالناس من كل الطبقات .. ورايت كثيرا من علية القوم ومن المهراجات ، وعلق بيتر على ذلك بأنه ما كان يدور بخلده انه يجد بالهند هذا العدد الوفير من خيار القوم . ووجد ماريو بغيته من مشاهد الجمال الذي كان يمني نفسه بها : سيدات الهند الجميلات وقد ارتدين الساري الحريري المتعدد الألوان ، يفضن انوثة وحياة ، وبينهن السيدات الانجليزيات وقد تضاءلت انوثتهن وانزوت فتنتهن . وبين تلك الباقات الجميلة المتعددة الألوان ، كان ماريو يخطر جيئة وذهابا ، تقديرا منه لكل هذا الجمال .

ودعاني بيتر لندرس الجياد قبل أن يراهن عليها ، وتركنا ماريو ينعم بأزهار المجتمع الهندي ، تذوقا للجمال في نظرات بريئة .

وعدنا الى المدرجات بعد ابتياع تذاكر المراهنة ، ولم نحاول ان نبحث عن ماريو في هذا الجمع المحتشد ، وجلسنا ندخن في انتظار بدء السباق . ومنيت نفسي ، في حالة الربح ، بدعوة مس وبي للعشاء . وصارحت بيتر بذلك ، فضحك مني وقال لي ، انك تستطيع هذا سواء ربحت أو لم تربح . فقلت له :

— ولكن هذا يجعل السباق اكثر اثارة .

فابتسم في وجهي قائلا :

— اذن فقد صدق حدسنا عنك وعن مس وبي .

وبدأ السباق ولم يوفق الجواد الذي راهنا عليه . واعدنا الكرة في الشوط الثاني ، وعاد الحظ ليخوننا مرة اخرى . وتكرر ذلك في الشوطين الثالث والرابع حتى نفد ما معي من نقود . وعرض

على بيتر أن يقرضني ما أريد ولكنني رفضت . وفي الشوط الخامس انفرد بيتر بالمراهنة وربح مبلغا محترما وكاد يطير فرحا .. وبعد ان انتهى السباق وقفنا ننتظر ماريو عند الباب . وأخيرا أبصرنا به قادما في الزحام وقد فاض وجهه بشرا . وقبل أن نسأله عما كان من أمره ، ابتدرنا هو بنفس السؤال . وأحطناه علما بكل ما كان ، وبما حققه بيتر من ربح ، وأردفنا نستفسر منه عما كان من أمره فقال :

ـ أكثر مما حققتما .

ـ انك لم تكن تحمل معك الكثير من النقود .

ـ لقد ربحت العالم كله .

ـ انني لا أحب الاحاجي والألغاز .

ـ لقد بت أسيرا .

وكان يحاول أن يخفي ما يداعب شفتيه من ابتسام . ولكنه لم يستطع هذا لأن وجهه كله كان يختلج ابتساما ، وكانت عيناه تلتمعان بشرا وسرورا . وتركناه يسبح في خياله ، ولم نلح عليه بأسئلتنا حتى صرنا في السيارة ، وعندئذ عدنا نلاحقه بالسؤال تلو السؤال . وأخيرا أشبع فضولنا قائلا :

ـ الحق أقول لكما .. لقد التقيت بأجمل فتاة على سطح الأرض .

فقال له بيتر :

ـ كان يجب على الا أدعك تغيب عن نظرى .

ـ لم أكن لأتوقع انني سأعثر على بغيتي هنا .

ـ اياك وأن تعني بحديثك هذا احدى اللواتي يرتدين السارى ؟

ـ كلا .. انها فتاة انجليزية .

ـ فتاة محترمة ؟ .

ـ بكل تأكيد .. لقد كانت في صحبة والديها .

ـ وهل تحدثت اليها ؟ .

ـ لقد شعرت بمجرد أن وقع بصرى عليها بأنها فتاة ممتازة . وظللت أتابعها بنظرى ، دون أن أحاول اخفاء ذلك عنها . ثم أقدمت على التحدث اليها وكأني أعرفها من سنين . ولقد كانت هذه أول

لتجربة لى من هذا القبيل . وبدات أومن بأن الأقدار تعد لنا مراحل حياتنا لحظة بلحظة . وانها تضع المكان الصالح فى الوقت الطيب للشخص الطيب باحكام وحسن تقدير . حتى أسمها له وقع جميل أخاذ . انها تدعى « دوركاس » .

فعلق بيتر قائلا :

ـ فى الحق انه لاسم جميل .

ـ لقد اشتركنا معا فى المراهنة وخسرنا فى كل شوط . ولم يكن يهمنا هذا فى كثير او قليل . لقد كنا ننعم بتبادل الحديث . اما ما عدا ذلك فلا يهم .

ـ وماذا عن والديها ؟ .

ـ لقد خيل اليهما اننا أشبه بصديقين قديمين ... ووالدها ميجور جينرال . وهو مريض بالنقرس

ـ أرجو لك أن تسعد بصداقتك الجديدة .

ـ وهذا ما ارجوه لنفسى . من يدرى مدى ما ستنتهى اليه هذه العلاقة ؟ .

مهما يكن من امر ، فسيتكرر لقاؤنا فى الأسبوع القادم .

وقفلنا راجعين الى الفندق حيث وجدنا أن ميرفين قد غادره ولم يترك لنا ما ينبىء عن وجهته . وبعد ان اغتسلنا وابدلنا ثيابنا خرجنا ودعانا بيتر لتناول وجبة صينية احتفالا بحظه السعيد ؛ ثم توجهنا الى السينما ، ومنها عدنا الى الفندق حيث وجدنا ان ميرفين لم يعد بعد . وآوينا الى فراشنا ؛ واستلقيت استعرض احداث يومى ، وقد احتلت مس وبى مكانا كبيرا . وبعد قليل وصل الى مسمعى وقع خطوات ميرفين فناديته اسأله عن الساعة ، وعلمت منه انها الثالثة صباحا . وقد لاحظت ان حالته غير طبيعية ، ولم أستطع ان اتبين ما اذا كان ثملا من عدمه الا بعد ان خلع حذاءه وطوحه ثم استلقى على فراشه بكامل هندامه .

- ٢ -

وكانت دروس مس وبى بعد الظهر . والساعات التى نقضيها معها اجمل ساعات اليوم . وكنا قد تقدمنا كثيرا فى تعلم اللغة اليابانية ، بفضل ما اتبعته معنا من أسلوب عملى فى اجبارنا على تبادل الحديث معها .

واقبل علينا البريجادير ذات يوم يعتذر عن تغيبها لمرضها . وترقبنا حضورها فى اليوم التالى ولكنها لم تحضر .. وبدأنا نفتقدها . ثم طال غيابها . وفكرت فى أن أرسل اليها باقه من الزهور . وشعرت بهدوء نسبى عندما نفذت هذه الفكرة ، وأدركت ان غيابها قد بدأ يثقل على ويقض مضجعى .. وقررت أن أزورها بالفندق فى اليوم التالى ، وكان يوم سبت ، وتوجهت لزيارتها بعد الظهر .

وانتظرت ببهو فندق الماى فير ريثما يؤذن لى بالزيارة .. وراودتنى شتى الفكر ، وكدت أعدل عن اتمام هده الزيارة خشية ما قد يكون فيها من ازعاج لها . وانتهت فترة ترددى عندما أقبل الرسول يعلننى بأن السيدة تدعونى بغرفتها رقم ٤٣ بالطابق الثانى . وقرعت باب غرفتها ، وسمعت صوت مس وبى يدعونى للدخول .

كانت غرفة فسيحة غالية الرياش .. وكان الفراش وثيرا نظيفا انيقا . وبين وسائده واغطيته البيضاء كانت تجلس مس وبى وكأنها قطعة من قطع الفن الرائع جمالا وبهاء وحسنا . ساكنة تعلو وجهها الرقيق خصلات شعرها الأسود الناحم ، وتنسدل على كتفيها محيطا بوجهها فتزيده حسنا على حسن وبهاء على بهاء . وفاضت نفسى بشعور أردت أن أصبه فى أذنيها ، لحنا حلوا اخاذا . بيد أننى وجدت نفسى أردد ما يردده الناس فى مثل هذه المناسبات تحية ومجاملة .. ثم اتخذت لنفسى مجلسا يبعد عن فراشها ببضعة ياردات . ولما سألتها عما بها قالت :

— مجرد صداع خفيف .

ـ هلْ عرضت نفسكَ على طبيب ؟»

ـ أجل . ووصف لى الدواء اللازم .

ـ ربما كان ذلك من أثر الشمس ؟.

ـ هل بعث بك البريجادير لتعنفنى على تخلفى ؟»

ـ أجل . والجميع يفتقدونك ».

ثم ضحكت وابتسمت .

ـ شكرا على الزهور .

ـ لقد بعثنا بها للتحية والتقدير .

ـ كم يسعدنى وانا اليابانية أن يكون لى أصدقاء .

ـ ان جنسيتك لا شأن لها بما لك من منزلة فى القلوب ؟ .

ـ هل لك فى قدح من الشاى ؟.

وأمرت لى بقدح من الشاى . وتجاذبنا أطراف الحديث عن اليابان وعن عادات اليابانيين وعن ثيابهم وأحوالهم ، وكانت تضحك بين الحين والآخر ، ضحكة حلوة رقيقة تزيدها فتنة وجمالا .. ووجدت نفسى أباداها جذلها وسرورها ؛ لأننى كنت أحس فى أعماق نفسى بفيض من السعادة يغمرنى .

وآثرت بعد انصرافى أن أقطع المسافة سيرا على الأقدام ، حتى يتسع لى المجال لأنعم بالتفكير فى تلك اللحظات السعيدة التى قضيتها معها .

- ٣ -

وعادوتنى آلام الدوسنطاريا . وكنت قد شعرت بمقدماتها منذ يومين . وبدلا من أن أتوجه الى المدرسة توجهت الى الطبيب الذى صارحنى بضرورة التوجه فورا الى المستشفى لأن حالتى تستدعى ذلك .

وعدت الى الفندق فى احدى سيارات الاسعاف لأحمل حاجياتى واترك مذكرة لبيتر ولتابعى باهادور . ثم توجهت الى المدرســة لمقابلة البريجادير الذى علمت منه عرضا بأن مس وبى ستهستانف دروسها بعد ظهر اليوم نفسه .

واسفت على تلك الظروف الصحية التى تضطرنى لدخول المستشفى والتخلف عن متابعة حضور فصولها الدراسية . وكدت اثور على نفسي وعلى آلامي . وعلى ضآلة الانسان أمام تلك الجراثيم الحقيرة التى لا تكاد ترى بالعين المجردة ، وعلى ضعفه فى تكييف حياته كما يحلو له .

وكانت المستشفى تبعد ستة أميال عن الميناء ، وتقع بالقرب من ميدان السباق . وانخرطت فى مسلك الجناح الخاص بمرض الدوسنطاريا . وأسرع الأطباء والممرضات فى اجراء الفحص الذى يتبع فى مثل هذه الأحوال .

واضطجعت فى فراشي قلقا ساخطا لا يستقر لى قرار . فلم تعد بى رغبة فى الرقاد أو العزلة بعد أن بدأت الحياة تبتسم لى وتتفتح وخشيت أن يطول مقامى وابتعادى عن حياتى التى بدأت تضاحكنى بفضل مس وبى . وكان معى بالغرفة ضابط يدعى جريجورى ، دخل معى فى حديث طويل عن الحرب وعن اليابانيين . ووجدتنى ادافع عنهم على خلاف عادتى . واشتد الجدل بينى وبين جريجورى واحتدم النقاش . وكاد يسمنى بالخيانة لدفاعى عن العدو واختلط الأمر عليه ، وظن فى دفاعى عنهم كبشر آدميين انه دفاع عنهم كأعداء ومحاربين .

ولم ينته هذا الجدل العقيم الا بدخول الممرضة لسبرغور حرارتى ونبضى . وقد دهشت لأنها وجدتهما مرتفعين . وأعلنتنى بذلك وطالبتنى بعدم الاكثار من الكلام والحركة .

وخلدت الى الراحة والسكون ، ولكن فكرى لم يهدأ . واندفعت مس وبى لتحتل كل ناحية من نواحى تفكيرى .. وتبين لى اننى لم أندفع فى مناقشتى مع الكابتن الا لاننى كنت أتمثل فى خاطرى مس وبى فأردت أن أدافع عنها فدافعت عن جنسها كله ، وضقت ذرعا بكل ما كان يتحدث به الضابط عنهم . ووجدتنى أستعيد كل لحظة قضيتها بجانبها وأتمثلها فى كل صورها ، بالمدرسة وبالسوق وبغرفتها بالفندق ، وبكل شيء فيها . وكانت فى كل صورة تبدو أروع من سابقتها وابهى حسنا . ووجدتنى احدث نفسى قائلا :

ـ أو يمكن أن يتم الأمر بكل هذه السرعة ؟ . انك لا تعرف عنها شيئا . لا تعرف عنها شيئا على الاطـلاق أترى أهو خيالك الذى يخلق لك كل هذا ويصوره ؟ .

ان خيالى لم يكن الا نارا مشتعلة أتت على كل منابت العقل والمنطق ، كما تأتى النار على الهشيم وتذرو رماده فى الهواء فيختفى فى فضاء العدم .

- ٤ -

وفى صباح اليوم التالى عادنى الطبيب ، وطمأننى بأن حالتى لن يستغرق علاجها أكثر من عشرة أيام . وبدأ العلاج فعلا ، بأن أمر الممرضة باعطائى أول جرعة تحت اشرافه .

وشعرت بتحسن بعد قليل . تحسن قد يكون راجعا فى معظمه الى ارتفاع حالتى المعنوية ، بعد أن علمت ان علاجى لن يستغرق أكثر من عشرة أيام فقط . ونهضت وخرجت الى الشرفة ، واحتللت احد مقاعدها الكبيرة المريحة فى ركن ظليل . وجلست أنعم بوحدتى فى تراخى الكسل الذى ازداد من تأثير حرارة الجو . واغمضت عينى نفاديا من شدة الضوء . وبدات اغفو بعد قليل مسندا رأسى الى ظهر المقعد .

وأيقظنى بهادور من غفوتى . وسررت اذ وجدته أمامى ساعيا ليرانى . وكان سرورى أكثر لما عرفت انه قد أتى بكل ما قد احتاجه بالمستشفى . ووقف يتأملنى قائلا :

ـ ما كان يجب على أن أدعـــك تتناول من الطعام مالا يلائم صحتك ؟ .

ـ لست مسئولا عن ذلك يا باهادور . أنها جرثومة خبيثة .

ـ كـلا . انك انجليزى رقيـق وطعام الهنـود لا يتـلائم معك .

ـ اعدك . بأننى سأتبع ارشاداتك .

وقبل أن يمضى أخرج من جيبه ثلاث رسائل سلمها الى . الأولى كانت نشرة طيران . والثانية رسالة من الأهل بالوطن .

اما الثالثة فكانت مذكرة من بيتر . وكان اهم ما ورد بها خاصا بمس وبى :

ـ وليس من شك فى ان مس وبى المحبوبة ، قد ساءها غيابك عنا او قل عنها . واصارحك باننى بدات اشعر بالغيرة .

واعدت قراءة هذه الفقرة غير مرة . أو يقول حقا ؟ او يمكن أن تلحظ غيابى وتعلق عليه ؟ . أم انها احدى دعابات بيتر ؟ . أو تحس هى حقا بالوحدة والاكتئاب لغيابى لشد ما أمنى النفس بأن يصح ذلك ! »

ثم خطر لى فجأة ان اكتب لمس وبى . وعدت لأراجع نفسى فى ذلك ، لما فى كتابة الرسائل من خطورة ومجازفة . ولكننى كنت فى امس الحاجة لأن اكتب اليها . ان امامى اسبوعا على الأقل يجب ان اقضيه بالمستشفى . ولن أكتب لها اكثر من اننى سعيد بتحسن صحتها واننى آسف على حرمانى من حضور فصولها الدراسية واننى أرجو عند مغادرتى للمستشفى ، أن تسمح لها ظروفها بتناول العشاء معى ، واننى سأظل دائما .. سأظل دائما ماذا ؟ . سأكتب وسأنتظر الرد وليكن ما يكون .

وقمت بتحرير الخطاب وغلفته ، ثم وضعته على المنضدة بجوار فراشى . ولاحظت اننى عدت لأفكر أارسله ام لا ، فقد كنت مترددا غير مستقر على رأى .

وبينما كنت فى حيرة من امرى ، دخلت المرضة فى نوبة مرور . ولما اقتربت من فراشى وقع نظرها على الخطاب فسالتنى :

ـ أتريد أن تبعث به ؟

ـ لو سمحت ـ شكرا .

وبذلك قضت على حيرتى وقطعت على ترددى . وشعرت بارتفاع حالتى المعنوية . ولكننى كنت فى أشد حالات الضيق من راديو الكابتن جريجورى الذى لا تخمد له صوت . ودخلنا مرة اخرى فى مناقشة حامية الوطيس حول هذا الموضوع ، لم يضع لها حدا الا دخول الممرضة قائلة :

ـ انت كوبين ، ضابط الطيران ، اليس كذلك ؟

ـ اجل .

ـ زيارة لك »

ثم فتحت الباب فى نفس اللحظة التى كنت افكر فيها أن الزائر لابد وان يكون بيتر ، وهى فرصة سانحة لكى أسـأله عن صحة ما ورد بخطابه بشأن مس وبى .

ولكنه لم يكن بيتر .. لقد كانت مس وبى لحما ودما !.

- ٥ -

واقبلت تقول :

ـ أرجو الا اكون قد أزعجتك .

وارتج على القول بادىء ذى بدء ، وأخيرا قلت لها فى فرح الصبية الصغار :

ـ يا لله .. اتزعجيننى ؟ . يا لها من مفاجأة .

ونهضت مسرعا من فراشى ، وارتديت « الروب دى شامبر » وخرجنا معا الى الشرفة . واتخذنا لنا مقعدين فى الظل ، ومكثت برهة لا أدرى كيف ابدأ حديثى معها وأخـيرا قلت لها :

ـ خبرينى . كيف حال الدراسة ؟ .

ـ انهم جميعا فى غاية الظرف معى .

ـ حتى فينوبك ؟.

ـ لقد زايلته عصبيته . كل شىء على ما يرام .

وراحت تسرد على مسامعى بعض ما كان يجرى من نوادر بينها وبين الضباط فى الفصل . وكيف عرفت بمرضى من بيتر ثم سكتت عن الكلام . وران علينا صمت كان أكثر تعبيرا من مدلول الألفاظ المتبادلة . وأخيرا قلت لها :

ـ لقد بعثت اليك برسالة اليوم .

وهنا رأيت الممرضة التى سلمتها الرسـالة مقبلة ، فناديتها وسألتها عنها ، وبعد أن أخرجتها من جيب معطفها سلمتها الى وهنا ، طلبت منى مس وبى أن أطلعها عليها ، قلت لها :

ـ لم يعد بك حاجة لذلك . بوسعى أن اصارحك بكل ماورد فيها .

ـ ارجوك .

ومدت لى يدها لتؤكد اصرارها .

ـ لقد قلت لك . ليس بالرسالة ما يستحق كل هذا .

ـ ولكننى أحب أن أطلع عليها كما حررت .

ـ كلا . فقد تجدين بها بعض السخف .

ـ ان الرسالة معنونة باسمى وأصبحت من حقى .

ـ ولكنها فى يدى الآن .

ـ سلمنى هذه الرسالة . انك أحد تلاميذى . وعليك ان تطيعنى .

ـ فليكن .

وسلمتها الرسالة بعد لأى ففضت المظروف وشرعت فى تلاوتها ، واستغرقت فى هذا وقتا طويلا . وبعد أن فرغت من تلاوتها طوتها وأودعتها حقيبة يدها بكل عناية . فقلت لها :

ـ لقد شعرت بالحرج وأنت تطلعين على رسالتى التى حررتها لك فى حضورى .

ـ انها رسالة رقيقة . وأكثر منها رقة تفكيرك فى كتابتها .

ـ ولكنها لم تتضمن كل ما كنت اريد ان أبوح لك به .

ـ وماذا كنت تريد أن تبوح به لى ؟.

وحدجتنى بنظرة بادلتها بمثلها ، وتعطلت لغة الكلام وتحدثت العيون . ثم سمعتها تقول أخيرا :

ـ لكم انا سعيدة .

ـ قد يصح ذلك الى حد ما . الا أننى الاحظ فى عينيك من الأسى ما تجاهدين فى اخفائه .

ـ اذن فسأستعمل العوينات حتى لا تستطيع ان تنفذ الى قرارة نفسى .

ـ وهل لديك اى مانع فى أن أطلع على قرارة نفسك ؟.

ـ كلا ، الا اذا كنت لا تعنى ما تقول .

ـ سأدعوك «سابيشى» وهو اسم فيه الجمال وفيه الغموض .

او فلنختصره الى « سابى » . انه الآخر اسم جميل . ولعله اخف على الأذن من اسمك الحقيقى .

ــ ان اسمى الحقيقى هو هاناكو .

ــ الزهرة الفضه !! .. ياله من اسم جميل الدلالة . ولكننى افضل ان ادعوك « بسابى » .

ونهضت لأرافقها حتى باب الخروج . ووقفت انتظر حتى استقلت السيارة ، ثم قفلت راجعا الى غرفتى ، حيث وجدت الكابتن ينظر الى شذرا ، لأنه عرف السر فى دفاعى عن اليابانيين .

الكتاب الثانى

الفصل الأول

- ١ -

غادرت المستشفى بعد ظهر اليوم الذى حدد لى . وبينما كنت أرتقى درج الفندق ، التقيت بمس هاكسون ، فحيتنى مرحبة بى ، واستفسرت منى عن حالتى الصحية ، فشكرتها وطمأنتها عليها .

وقضيت ساعة فى القراءة بعد تناول الشاى . ونعمت بالهدوء والوحدة . ولاحظت اننى لم أعد أشعر بهذا الفراغ الذى كنت اشعر به من أسابيع مضت ، وسرنى أن يعود لى احساسى بكيانى وبما يحيط بى من حياة .

ونهضت فى الخامسة اتهيأ لارتداء ثيابى . وما كدت أنتهى من ذلك ، حتى أقبل بيتر متأبطا كتبه وقاموسه قائلا :

ـ آه .. يسرنى أن أراك تتهيأ لتدعونى للعشاء . لقد كنا نتوقع ذلك منك فقد اقتصدت كثيرا من المال أثناء اقامتك بالمستشفى .

ـ اننى ما زلت فى دور النقاهة . وعليكم أنتم أن ترفهوا عنى .

ـ ليس لدينا من النقود مثل ما لديك . اننا مفلسون . لقد اقترضت من ميرفين ، وميرفين اقترض من ماريو ، وماريو من البريجادير . لقد اتضح لنا ان البريجادير اشبه بكنز من الذهب . اننا نعبده جميعا .

ـ وما هى آخر أخباركم ؟ .

وبدأ يسرد على نوادر فينويك ، وهو يعرف أنها آخر ماكنت أود أن أسمعه . ثم تلاها بالحديث عن مس جاكسون وعن قلبها الذهبى وخفة روحها . وعلمت منه ان اسمها الأول هو روزى ، وانها كانت تعيش قبل الحرب فى رانجون ، التى هربت منها حتى لا تقع فى

قبضـــة اليابانيين .. ولمـا وجدته مسترسلا فى حديثه عن مس جاكسون ، حاولت أن أغير مجرى الحديث بسؤاله عن مدى تقدمه فى تعلم اليابانية . وبدلا من أن أتلقى منه الاجابة التى كنت اتوق اليها ، راح يحدثنى عن القصة التى يزمع تأليفها عن الحرب العالمية الثانية لتكون صنوا لقصة « كل شىء هادىء فى الميدان الغربى » عن الحرب العالمية الأولى . وترك لخياله العنان ليبنى قصورا على الرمال . وأخيرا عاد الى عالم الحقيقة ليسألنى :

ــ والآن : ماذا عن دعوتك لى للعشاء ؟ .

ــ ليس هناك دعوة للعشاء .

ــ ولكنك لن تذهب وتتركنى .

ــ أهلا بك اذا صممت .

ــ لا تخف .. لقد كنت أمزح فقط .. فأنا أعرف كل شىء .

ــ ما أظنك تعرف شيئا .

ــ بل أعــرف انك ذاهب لمقــابلة زهرتك الرقيقة هاناكو فى الساعة السادسة والنصف عند مدخل بهو التاج .

ــ وانى لك هذه المعلومات ؟ .

ــ هى التى أخبرتنا بذلك فى قاعة الدرس .

ــ لست أصدق شيئا من هذا القبيل ، لا يعقل ان تفعل ذلك .

ــ انها تحيطنا علما بكل شىء .

ــ كفاك هذرا .. ان ما تقوله غير مقبول عقلا .

ــ اذن فاليك الحقيقة .. ان الأمر كله من استنتاجى الخالص . فأنت تعرف اننى أعد نفسى لأكون كاتبا قصــصيا متخصصا فى القصص البوليسية. ولقد لاحظت اليوم أن مس وبى تنطق السعادة فى كل ملامحها ، مما يدل على انها مقبلة على موعد هام محبب الى نفسها . ثم حضرت الى هنا لأجدك تتهيأ للخــروج ، الأمر الذى حددت منه موعد السادسة والنصف وهو الوقت الذى تصل فيه الى التاج . أما عن تحديدى مكان اللقاء بالتاج ، فذلك لأنه المكان الوحيد لمثل هذا اللقاء فى بومباى .

ــ أوه .. يا لك من ماكر . لقد افزعتنى فى اول الأمر .



ـ اذهب ولا تخش شيئا . واذا ما افتقدك الزملاء فسأخبرهم بانك ذهبت الى السينما فى صحبة روزى . وستؤمن روزى على قولى هذا .. هيا انطلق .. وانى لأرجو لك وقتا طيبا .

ووصلت الى التاج قبل الموعد المعين بعشر دقائق . ووقفت أقطع الوقت بتصفح بعض الكتب والمجلات المودعة بالمدخل . وبينما شغلت بتصفح مؤلف استرعى انتباهى بعنوانه واهدائه ، شعرت بمن يقترب منى قائلا باليابانية :

ـ كيف حالك ؟ .

فأجبتها باليابانية :

ـ بخير ما دمت ..

وكانت هذه العبارة هى كل ما استطعت ان أذكره بعد ثلاثة أسابيع قضيتها بالمستشفى .

وعادت سابى تسألنى بالانجليزية عن صحتى ، فأكدت لها اننى بخير . وكانت سعيدة مرحة تنطق الانجليزية فى لكنة مثيرة وتطلب منى أن أصحح لها أخطاء نطقها .

وارتقينا الدرج العريض الضخم ، وجلسنا الى منضدة بجوار نافذة تطل على الخليج .

ولما أقبل الساقى رفضت أن تتناول شيئا . واصرت على الرفض بالرغم من الحاحى . واضطررت اخيرا الا اثقل عليها .. واستأذنتنى فى أن تدخن . فأسرعت بالاعتذار اليها ، وحاولت أن أقدم لها احدى سجائرى . ولكنها كانت قد أسرعت بدورها وأخرجت من حقيبتها صندوقا فضيا أنيقا ، نقش عليه الحرفان هـ . ت . وقدمت لى لفافة تبغ منه . وكنت اعرف ان حرف هـ يعنى هاناكو . ولكنها لم تكن قد صرحت لى بشىء عن دلالة حرف ت . وقد حملنى هذا لأول مرة على ان أفكر فى ماضيها . غير أننى لم أكن فى عجلة من أمرى لأستفسر منها عن شىء منه .

وشرعت أتأمل وجهها عن كثب . وجلت بعينى فى كل لمحة من لمحاته لعلنى أجد به شيئا يعيبها . ولكننى لم أجد الا جمالا فى اثره جمال ، ومحاسن رائعة يطغى بعضها على بعض . وانطبع الوجه العاجى الشرقى الملامح فى ذهنى ، وملأت صورته كل

بخيالي . واستطعت أن انفذ من عينيها الى أعماق نفسها واسبر غورها ، لأطفو على السطح واثقــا مما يعتمل فى هذه النفس من لواعج الشقاء وطفرات السعادة التى تضطرب بها روح امرأة قد مرت بخضم الحياة . وفضحتنى عيناى ، وسمعتها تقول لى :

ـ ماذا نريد أن تعرف ؟ .

ـ اعرف ماذا ؟ .

ـ ان عدم اتقانى اللغة الانجليزية يضعف من قوة تعبيرى .. لكنت أريد أن أقول ، انك تحدجنى بعينيك وكأنك تريد أن تنفذ الى أعماق نفسى .

ـ تلك هى الحقيقة .

ـ وماذا تريد أن تعرف ؟ .

ـ كل ما أعرفه اننى بدأت أميل اليك .

ـ هكذا ؟ . هل انت واثق مما تقول ؟ .

ـ كل الثقة .

وبعد ان اتيت على كأسى ، وانتهت هى من تدخين ثلاث لفافات من التبغ ، نهضنا الى قاعة الطعام لتناول العشاء . وكانت القاعة تعج بعلية القوم من الهنود ونسائهم ، وبالضباط وغيرهم من النزلاء وعلت انغام الموسيقى وتمايل الراقصون ، ودبت الحياة فى القاعة ونسى المجتمعون الحرب وما تحمله معها من آلام .

قالت سابى :

ـ هذا اول عشاء لنا معا .

ـ لقد تناولنا الشاى فى حجرتك .

ـ اذن فهذا ثانى اجتماع لنا على انفراد .

ـ كلا . انه الرابع .

ـ او يتمين على أن اناديك بمستر كوبين ؟ .

ـ نادنى بما تشائين . الأمر عندى سواء .

ـ ولكنى افضل ان اناديك بميشيل .

ـ فليكن . مهما يكن من أمر الاسم الذى تنادينني به ، فكل الأسماء تجرى على لسانك لحنا جميلا .

ـ رقة تعبير ما تقول ؟ . ام تراه مجاملة الفاظ ؟ .

ــ لا هذا ولا ذاك ، بل هي حقيقة شعوري وانه ليخيل الي انني عرفتك من سنين .

ــ ان تآلف النفوس أمر يقع تلقائيا دون جهد و اعنات .

ــ أجل . انها دفعة الأرواح تلتقي دون تصنع و رياء .

وفي القارب الذى عدنا به ، وضعت يدها بين يدى . وكنت اضغط عليها برفق ، لأنها كانت رقيقة كطير صغير هش ضئيل .

سألتني ونحن في طريقنا :

ــ هل تعجبك بومباى في الليل ؟ .

ــ في بعض الأحايين .

ــ هل هي أجمل من لندن ؟ .

ــ كان آخر عهدى بلندن في ليالي الاظلام .

ــ لقد شهدت ذلك وعشت هذه التجربة .

ــ لا أستطيع أن اتصور انك قادمة من لندن .

ــ لقد أحببت لندن والحياة فيها . لقد كنت جد سعيدة هناك لندن بلد لها طابعها الخاص . ان الانسان عندما يبلغ قمة السعادة حرى به أن يموت قبل أن يعود ليرى الشقاء .

ــ وهل أنت تعسة الآن ؟.

ــ كلا . أنا جد سعيدة .

ــ وستظلين سعيدة .

ــ كلا . ليس هذا من شيمة الحياة . وليس في طبع لياليها الأمان . يكفي أنني سعيدة . وهذا هو حاضرى الذى يجب أن انعم به . دع المستقبل لله ، ولا تشغل بالك بما هو آت .

وكنا قد وصلنا الى الفندق الذى تنزل به ، فصرفنا القارب ودخلنا معا الى بهو الفندق ، ثم الى المصعد ، ثم الى غرفتها .

وخرجت الى الشرفة أتأمل السماء حينا ، وأنظر الى الشارع حينا آخر ، ولم يكن ليعنيني ما في السماء من نجوم ، او ما في الطريق من اضواء وحركة ، لأنني كنت أقلب نظرى في فضاء نعيمي ، وأسرح الطرف فيما أنا فيه من هناء .

ثم سمعتها تناديني . والتفت لأراها عند باب الشرفة ، وقد وقفت كتمثال من تماثيل آلهة الجمال لا تتحرك . وكانت ترتدى

ثوبا يابانيا فضفاضا متعدد الألوان . ووقفت تبتسم وقد تدلى شعرها الأسود الفاحم فكان كاطار رائع لوجهها العاجى الجميل . ووقفت أتأملها دون ان أقول شيئا ، فقد كنت أريد ان تنطبع هذه الصورة فى ذهنى كما هى ، رائعة جميلة تخلد ذكرى لحظة من أجمل لحظات حياتى . ولما بدأت تتحرك سألتها أن تظل فى مكانها ، ثم اندفعت اليها أطوقها بذراعى وأكاد احتويها بين ضلوعى وطبعت على شفتيها قبلة أودعتها كل مشاعرى وحنانى .

الفصل الثانى

- ١ -

عندما عدت الى الفندق ، وجدت خطابا من مستر هيدلى يدعونى فيه العشاء . فاتصلت به تليفونيا لأعتذر عن قبول الدعوة ولكنه رفض أن يقبل اعتذارى وأصر على دعوتى مع من أكون مرتبطا بموعد معه . فقلت له موضحا :

ـ انها معلمتى اليابانية .

ـ ان ذلك لا يغير الوضع . أليست بشرا مثلى ومثلك ؟.

ـ فليكن .

ـ اذن الى الثامنة مساء .

وصعدت الى الطابق الأعلى لأجد أن بيتر لم يزل نائما . فأيقظته حيث كانت الساعة قد جاوزت الثامنة صباحا ، وفتح عينيه ليسألنى :

ـ هل قضيت وقتا طيبا فى مشاهدة الفيلم مع روزى ؟ .

ـ لقد كان فيلما رائعا .

ـ يبدو من خلجات وجهك انك لم تزل واقعا تحت تأثيره .

وشغلت نفسى بازاحة الغطاء عن فراشى حتى يبدو وكأنى قضيت الليل فيه . ثم بدأت أستعد لتغيير ثيابى .. وكان باهادور قد حضر فعاوننى فى ذلك . ولاحظت انه يتأملنى خلسة من طرف عينه . ثم سألنى أخيرا :

- اذاهب انت الى السوق ؟ .
- أجل .. ولكننى أفضل ان أذهب بمفردى .
- ولكنك ستجهد نفسك ، وانت لم تزل بعد فى دور النقاهة .
- قد يساعدنى هذا على استعادة قواى .
- بوسعك أن تعتمد على باهادور .
- فى يوم آخر .
- أنت حر .

وهبطت الى الطابق الأول لتناول طعام الافطار ، وكانت روحى المعنوية مرتفعة جدا . وخيل الى أن الوقت يمر بطيئا متثاقلا . وكنت أحدق النظر فى ساعتى حتى ظننت أن عقاربها لا تتحرك . التاسعة الا الربع . ثم التاسعة . وبعد فترة حسبتها اشبه بالدهر كله صارت التاسعة والربع . وكنت قلقا لا يستقر لى قرار ..

وحاولت أن اقطع الوقت بالقراءة . ولكننى لم أفهم شيئا مما كنت أقرا . وما ان بلغت الساعة العاشرة الا الربع حتى كنت عند مخازن الجيش والبحرية فى تمام العاشرة والنصف .

ورأيتها مقبلة أمامى تمشى على استحياء . فقد حرصت هى الأخرى على ألا تتخلف عن الموعد . وتقابلنا والتقت العيون لاتخفى شيئا مما يعتمل فى النفوس من شوق وحنين . وتصافحنا ، وكادت تذوب حنينا فى دفعة اللقاء فقلت لها :

- انك لا تحاولين اخفاء مشاعرك . ان الناس ...

فقاطعتنى قائلة :

- لا عليك من الناس . ولا يعنينى فى كثير ولا فى قليل أن يعرفوا ما بيننا .

وكانت من فرط سعادتها لا تكاد تستقر بقدميها على الأرض قلت لها :

- ان استهتارك قد يكلفك أكثر من عملك .
- ساحيط البريجادير علما بكل شىء .
- معنى هذا انك سترحلين عنا .

اذن فلن اخبره بشىء . اننى طوع امرك . هل يرضيك ان ألبس لبوس الجد ؟ فليكن لك ما تريد اذن .

وجهدت نفسها حتى اكتسى وجهها بطابع حزين ، لم يتفق مع ما كان يشع من عينيها من بريق السعادة والهناء .

ــ هيا بنا . ماذا تريدين ابتياعه ؟.

ــ كل شيء . الدنيا بأسرها .

ودلفنا الى المخازن نتجول بين أقسامها . وبينما كنا نبتاع بعض الحلوى ، سمعتها تقول اننا لن نأكلها الا في المساء .. فتذكرت دعوة هيدلي واحطتها علما بها . وقد ظنت بادىء ذى بدء ان الدعوة موجهة لي وحدى . فلما أخبرتها بأن الدعوة موجهة لكلينا كادت تطير فرحا . انها كالأطفال ، تفرح لكل شيء ، ومن يدرى فقد تغضب ايضا من أقل شيء .

ومررنا بأحد المقاهى ، واقترحت عليها أن ندخل لتناول قدحين من القهوة المثلجة . وكان المقهى مزدحما ، وجلس كل منا تجاه الآخر يرتشف قدحه حينا ويتأمل الآخر حينا آخر . ولاحظت ان الحاضرين يحدقون النظر في وجه سابى ، فاذا ماتصادف والتقت عيونهم بعينى اشاحوا بوجوههم عنى تفاديا من نظراتى .. ولم أكن أدرى ما اذا كانت نظراتهم لها اعجابا بجمالها أم استغرابا لأنها يابانية . ولم تلحظ سابى شيئا من ذلك . لأنها كانت غرقى في لجة من سعادتها ، لاترى شيئا الا ذاتها . ولا تعنى بشيء غير أن تتأملنى ، وكأننا نجلس في المقهى بمفردنا . ولطالما تاقت نفسى أن اضمها بين ذراعى وأمطر عينيها قبلات ملئت غراما واتقدت هياما .

وبعد أن فرغنا من احتساء قهوتنا ، قمنا بشراء بعض الحاجيات وابتعت لها منديلا حريريا تغطى به رأسها . وامرت بارسال بعض الزهور لغرفتها . وابتاعت سابى لى ساعة فضية ، عارضت كثيرا في قبولها ، فلما أصرت تقبلتها شاكرا .

وغادرنا المخازن يدا في يد ، لا تكاد اقدامنا تحملنا من فرط سعادتنا . كنت سعيدا الى حد لم أعهده من قبل . بل وبلغ بى شعورى بسعادتى حدا كنت أخشى معه ما عرف عن غدر الأيام والليالى بمن يبلغون اعلى ذرى السعادة ، فتهبط بهم من حالق النعيم الى حضيض الشقاء ، دون أن ترفق بهم .

وتساءلت فيما بيني وبين نفسي « ترى ماذا سيكون من أمرنا ؟ »
وكأني بسابي وقد تواردت خواطرها مع خواطري فسألتني فجأة
ــ ميشيل . ترى كيف تكون الجنـــة التي يمني الناس بها
أنفسهم ؟ .
ــ لمـــاذا ؟ .
ــ لقد سمعت الناس تردد هذا التعبير .
فحاولت أن أفسر لها ذلك قائلا
ــ فلنفرض انك تجلسين في غرفة ما وبيدك زجاجة من الجن
والى جانبك آخر قنبك ، وخيل اليك بهذا أنك قد بلغت أعلى مراحل
السعادة ، وطوال هذه الجلسة توجد قنبلة زمنية بأحد الأدراج .
هذا هو النعيم الزائل أو الخادع أو فلتسمه كما تشائين .
ــ وهل تظن ان هناك قنبلة زمنية في صندوق حياتنا ؟.
ــ بل وأني لأسمع صوت دقاتها .
ــ قد يكون ما تقول صحيحا ، ولـكنني أصم اذني عنه ، حتى
لا أفسد به هنائي .
وكنا قد وصلنا في هذه اللحظة أمام بنك الامبراطورية الشرقي
فقالت لي :
ــ سأدخل لصرف « شيك » . أرجوك ان تأتي معي ، حتى
لا يراني المدير .
ــ ولماذا ؟ هل هناك عجز في حسابك ؟.
ــ أوه كلا . ان رصيدي كبير .
ــ اذن . فما عسى ان يكون السبب ؟.
ــ لا شيء .. سأوضح لك الأمر فيما بعد .
واتجهت سابي الى الصراف وحررت الشيك . ورأيت احد
الموظفين الهنود يبتسم في وجهها قائلا :
ــ هل تودين مقابلة مستر سكايف ؟.
ــ ليس الآن انني في عجلة من أمري ؟.
ــ انه موجود بمكتبه .
ــ كلا . شـــكرا .
ولمـــا انصرفنا من البنك سألتها ؟

ـ خبريني من يكون مستر سكايف هذا ؟.

ـ هو رجل يشملني برعايته .

ـ ماذا تعنين ؟.

ـ انه صديق حميم للوصي على . اننى لم اخبرك بعد بأمر هذا الوصي . لدى الكثير مما يجب أناخبرك به . وكل مافى الأمر اننى لا اعرف من اين ابدأ . واليك مثلا سبب وجودي بانجلترا . وهو فى اعتقادى أول ما يجب ان احدثك عنه . فقد اضطر والدى ان يصحبنا ، والدتى وأنا ، فى رحلة الى أوربا . وقد حدث هذا عقب سوء تفاهم وقع بينى من ناحية وبين والدى ووالدتى من ناحية اخرى، بشأن رفضى الزواج من رجل اختاراه لى . وقد رحب بفرصة السفر لعلها تثنينى عن عزمى . ولكننى ازددت عنادا واصرارا على الرفض ، بل ورفضت العودة الى اليابان . وهددنى والدى بأنه لن يمنحنى نقودا ما ولن يكون مسئولا عنى . وحتى اقنعه بأننى جادة فى عزمى حصلت على عمل .

ـ كيف تيسر لك هذا ؟.

ـ ياصديقى العزيز ، أو حقا تريد انتسمع القصةبحذافيرها ؟.

ـ أجل لو تكرمت .

ـ يهتمون فى اليابان بتنسيق الزهور . ولقنت هذا الفن الجميل واتقنته ، لأننى كنت راغبة فيه وكنت اشعر بميل شديد للزهور وتأملها وتنسيقها . وبينما كنت اسير بشارع ريجنت وقع بصرى على حانوت لبيع الزهور ، فدخلت وقلت للمدير أرجوك ان تسمح لى بتنسيق زهورك .. ولما لم يفهمنى شرعت فعلا فى تنسيق باقة أعجب بها حتى انه دعا مساعده ليعرضها عليه مثنيا على ذوقى وبراعتى . وعرض على فعلا ان اعمل معه . ولما كان والدى قد هددنى بما هددنى به ، قبلت .. وهكذا طابت لى الحياة فى انجلترا .

فسألتها :

ـ مع وصيك ؟.

ـ أجل لانه رجل طيب القلب رقيق الشعور . وقد وعد والدتي هو وزوجته أن يسهرا على راحتي ورعاية أمري .

ـ ترى من عساه يكون ؟.

ـ المستر ويلبراهام دورستون .

ـ اللورد دورستون ، أليس كذلك ؟ .

ـ أجل ، هو بعينه . فقد كان صديقا لوالدي قبل قيام الحرب وكان هذا هو السبب في اننا كنا نقيم في قصره . وما أن لاحت بوادر الحرب في الأفق ، حتى حاول أن يعيدني الى وطني . فلما أمضني ذلك ، قبل أن يستظلني بوصايته . وقامت الحرب وتكفل بي وتعهد لأولي الأمر بأنه مسئول عني ، وهكذا سمح لي

ـ الم تأسفي على عدم عودتك لليابان ؟.

ـ كلا . لأنني لا أحب ان اتزوج من الرجل الذي يفرض علي وانني لسعيدة بحياتي هذه .

بالاقامة في قصره .

ـ ولكننا في حالة حرب . وانت بعيدة عن وطنك في بلاد وبين اناس يحاربون قومك .

فهزت رأسها نفيا ، وفاض وجهها بشرا ، لتنهي هذا الحديث وتعود بنا الى سماء سعادتنا .

ـ ٢ ـ

وتوجهت الى المدرسة بعد الظهر لأحضر فصلها الدراسي مع انه لم تكن بي حاجة لذلك بناء على الشهادة الطبية التي منحت لي بالتغيب اسبوعا حتى أسترد صحتي . ولكنني كنت اريد ان اراها دائما أمامي او بعبارة اخرى كنت لا اريد ان يراها زملائي في غير وجودي .

واقبلت سابي تخطر في خفة الطير الصغير . وحاولت الا تلتقي عيناها بعيني . ثم ألقت الي بنظرة خاطفة عابرة ، احمرت وجنتاها بعدها بدماء الخجل والانفعال . وبدات في توجيه الأسئلة الى زملائي ، فلما حل دوري سألتني :



ـ هلْ أنتَ ممن يرعون العهود ؟.

فأجبتهـا :

ـ هذا يتوقف على ماهية هذه العهود .

ـ هل تحافظ على وعدك لامرأة ؟.

ـ وهذا يتوقف على المرأة التى أبذل لها وعدىَ .

وكانت تحاول أن تخفى ابتسامتها . ولاحظت انها اصبحت محبوبة من جميع زملائى وان ساعتها الدراسية كانت ساعة تفيض بالمرح ، خفيفة الظل تمضى سراعا بدقائقها . وكنت لا أفتـأ أردد بينى وبين نفسى : «سابى يا طفلتى العزيزة الجميلة» .

ولـكنها لم تكن طفلة ، بل كانت امرأة كاملة النمو بكل ما فى هذه الـكلمة من معانى الأنوثة والحياة بقوامها اللدن الرقيق .. وعينيها البريئتين براءة الأطفال .. أما جمالها الروحى فقد كشف لزملائى الضباط عن حقيقة أمرها . ولذلك سـمعت أحـــدهم يستفسر منها :

ـ كم كان سنك عندما وقع حادث الزلزال الـكبير ؟.

وليس من شك فى انها فهمت من هذا السؤال انه وسيلة يريد بها السائل ان يصل الى معرفة ســـنها . ولـكنها لم تأبه لذلك فأجابته فورا :

ـ كنت فى السابعة من عمرى .

وعرفنا من هذه الاجابة انها فى السادسة والعشرين من سنى حياتها . الا أن الأعمار لا تحسب بعدد السنين . ان سابى سواء كانت فى السابعة عشرة من عمرهـــا ، أو فى السابعة ، أو فى السبعين ، فهى سابى ، الزهرة الفضة الجميلة .

ووقفت بالنافذة أتأملها عند انصرافها من المدرسة ، ونسيت نفسى حتى سمعت بيتر يهمس فى اذنى :

ـ انك تمر بحالة حب .

ـ من اليسير أن يختلق المرء مثل الذى تقول .

ـ لقد كنتما تتبادلان عبارات الغزل فى الفصل .

ـ هــراء ..

ـ ولـكن هذه هي الحقيقة . ان علاقتكما لم تعد تخفى على احـد ..

ـ هذا ما تزعمه أنت .

ـ ميشيل . انها تكشف عن ذات نفســها . عليكما بالتزام جانب الحذر . كن عاقلا . حدثها بذلك . أرجوك ان تستمع الى نصحى . انك لا تستطيع أن ترى ما يراه غيرك .

ـ ســاحاول .

وعدنا معا الى الفنـدق الذى نقيم به ووجـدت باهادور فى غرفتنا . كما وجدته قد أعد لى ملابس المساء . وقمت باستبدال ثيابى . ووجدت ان الساعة لم تتجاوز السادسة والنصف بعد . ووددت لو كانت السابعة والنصف لأننا تواعدنا فى تمـام الثامنة الا الربع ، حتى نكون عند مستر هيرلى فى الثامنــة . وجلست اتعجل مرور الوقت . ولـكننى لم أستطع الانتصار عليه ، فهبطت الى الطابق الأرضى واتصلت بها تليفونيا :

ـ ماذا تفعلين ؟ .

ـ أعد نفسى لانتظارك .

ـ وهل سيستغرق الوقت منك كل هذا ؟ .

ـ انى فى انتظارك الآن . فليس أحب الى قلبى من أن أكون معك . دائما معك . هيا لا تتأخر .

وانطلقت مسرعا اليها . فقد كنت أنا الآخر أحب أن أكون معها فى كل ساعة من ساعات حياتى . هـذه الساعات السعيدة التى أتيحت لى عندما بلغ احساسى ذروته بفراغ حيـــاتى ، تبدو فى عينى ثمينة عزيزة تقدر قيمتهــا بالدقائق والثوانى . فالمـاء هو المـاء . ولـكنه فى الصحراء الجرداء القاحلة ، غيره بجوار الأنهار الجارية .

ووصلت لأجدها فى ثوبها الفضفاض لم تستكمل زينتها بعد فقلت لها :

ـ ألم تفرغى من ارتداء ثيابك بعد ؟ .

فقالت لى :

ـ انني أتأنق لأبدو جديرة بك ـ
ـ انك جديرة بى فى أى وضع كان ـ
واقتربت منها واخذتها بين ذراعى وطبعت على شفتيها الرقيقتين قبلة عابرة ، ثم ابعدتها عنى على مدى ذراعى ، وامسكت بكتفيها وبدأت أتأملها معجبا فاحصا سعيدا بها . وكما كنت أفعل دائما ، كنت حريصا على أن تنطبع صور هذه اللحظات فى ذهنى حتى لا تغيب عنى ابدا .

وما أن وافت الساعة الثامنة الا الربع ، حتى كنا فى طريقنا الى مستر هيدلى . وبلغنا محل سكنه المجاور لمكتبه ، والفيناه فى انتظارنا ، حيث قابلنا مرحبا مادا ذراعيه لكل منا . ثم راح يتأمل سابى مطريا جمالها واناقتها فقدمتها اليه قائلا :

ـ مس وبى .
وشعرت بأن سابى فى حرج من أمرها وبأنها تريد أن تقول شيئا . واخيرا سمعتها تقول :
ـ ولكننى يابانية بالرغم من ظاهر الاسم الصينى .
فقال لها مستر هيدلى هاشا باشا :
ـ لقد حزرت ذلك . اننى مغرم باليابان . لقد عشت هناك ردحا من الزمن ولى بها عدة اصدقاء . لم يكن بك حاجة لتخفى اسمك اليابانى الحقيقى .. اننى سعيد لأنك لبيت دعوتى .. لكم كنت أود أن أكون طالبا فى مدرستك أتعلم معك اليابانية من جديد .

وجلسنا الى مائدة العشاء ، وادار مستر هيدلى دفة الحديث وكان كله حول اليابان والسياسة. وكان يوجه لسابى اسئلةصريحة فى الصميم . وكانت تجيبه هى الأخرى بما يمليه عليها شعورها ووجدانها . وراح الرجل يعرض وجهة نظره عما فى العالم من حروب وعن مثيرى هذه الحروب وعن تلك المجازر البشرية التى تذهب بأرواح الملايين من البشر . وانتقل بعد ذلك الى التفرقة بين الأجناس وما تعانيه الشعوب المتخلفة من بؤس وحرمان وشقاء وانتقل من حديث السياسة فجاة الى عينى سابى وما يبدو

فيهما من ذكاء لأنه لاحظ انها تتبع حديثه فى وعى وادراك لما يقول .

وفى طريق عودتنا ، كان مستر هيدلى هو محور حديثنا .. فقالت لى :

ـ الم تتبين شيئا من حديثه ؟ .

ـ لقد تبينت اشياء كثيرة . ولكننى لا اعرف أى شىء تعنين ؟ .

ـ الم تفهم ما كان يعنيه بقوله فى مرارة « على المرء أن يعيش » .

ـ اجل . انه عيش أقرب الى الموت منه الى الحياة .

ـ هذا هو بيت القصيد . يمكن للانسان فى بعض الأحايين أن يكون الحى الميت . وارى انه من الخير لمثل هذا الانسان أن يموت فعلا ، أولى له من ان يتعذب ويحيا حياة هى والعدم سواء.

ـ خبرينى .. لماذا تتحدثين دائما عن العذاب ؟ لماذا تلازم هذه الصورة دائما مخيلتك ؟.

ولكنها لم تعقب بشىء . وازدادت التصاقا بى ، وكأنها تريد بذلك أن تشعر بالطمأنينة والأمان . ولقد خيل الى أيضا انها ترى أمامها وحشا كاسرا تريد الاحتماء منه بى ، فقلت لها :

ـ تلك هى ناحية الطفولة عندك . انك لم تتخلصى أبدا من هذا الخاطر الذى يلازمك ويلازم خيال الأطفال خاطر المجهول الذى يثير الرعب القابع فى ركن الغرفة فى الظلام .

ومشينا على مهل ذراعا فى ذراع . وكان الطقس حارا .. والسماء صافية تزهو بنجومها .

وبدات اتساءل فجأة :

ـ من منا هو الطفل ؟ أهى سابى أم انا ؟ أهى سابى التى لمست اطراف الحقيقة ، أم انا الطفل السادر فى غيه وفى أوهامه ويدعى القدرة على حمايتها ، حتى اذا ما جد الجد انهار وتكشفت له حقيقة نفسه ؟ .

الفصل الثالث

- ١ -

وبعد أسبوع التقيت بمستر هيدلى صدفة فبادرته قائلا :

- كنت أريد ان استفسر منك عن رياضة اليوجا ، ومن يمارسونها .. اذ اننى أرغب فى أن ألم بشىء عن نواحى الهند الروحية .

فضحك قائلا :

- عندما تصعد الى السماء ، ستنتحى جانبا بسانت بيتر عند بابها وتقول له : استمع الى يا سانت بيتر ، هلا انبأتنى بكل ما تعرفه عن الملائكة ؟ وكأنك تريد منه ان يحيطك بكل شىء فى بضع كلمات قصار .

فقلت له :

- ولكننى يجب أن أعرف شيئا عن اليوجا . ان قومى سيسألوننى عنها عندما أعود الى الوطن . بودى لو قابلت واحدا ممن يمارسونها .

- أعتقد اننى استطيع ان أدبر لك هذا الأمر .

- كنت واثقا من انك تقدر على ذلك .

- وان كنت لم يسبق لى أن قابلت يوجيا . ولكننى سأرشدك لمن يعينك على ماتريد. اذهب لمقابلة سكايف.. ببنك الامبراطورية الشرقى . وهو خير من يرشدك الى ما تبغى . وقل له انك مرسل من لدنى ..

وسكايف هذا هو الذى تحدثت الى سابى بشأنه ، وقالت لى انه بمثابة ولى أمرها فى الهند . فلما التقيت بسابى بعد ذلك ، سألتها أن تذهب بى الى مستر سكايف ، وصارحتها بالسبب فى رغبتى هذه .

ـ كلا يا حبيبى . لست أوافق على أن اذهب بك اليه .

ـ لماذا ؟ هل تجديننى غير اهل لهذا ؟ .

ـ ليس الأمر كما فهمته .

ـ لن يكون بك حاجة لأن تصارحيه بشىء عنا . يمكنك أن تقدمينى اليه على اننى أحد طلبتك . طالب يريد أن يستطلع أسرار الشرق ويلم بنواحيه .

ـ ارجوك ، ليست بى رغبة لاصطحابك .

ـ ولكن لماذا ؟ .

ـ لأننى لا اميل اليه . انه شخص غريب الأطوار . ولا اريد أن اقابله أو ان أراه .

ـ ما دام الأمر كذلك ، هل لديك أى مانع فى أن اتوجه لمقابلته وحدى ؟ .

ـ بكل تأكيد لا .. لك أن تذهب متى شئت .

وتوجهت لمقابلة مستر سكايف فى اليوم التالى . وانتظرت الاذن لى بالدخول ما يقرب من عشر دقائق . ووجدته جالسا الى مكتب فخم أنيق . وكانت الغرفة فاخره الأثاث نظيفة . وبها سكرتيرة شغلت بالكتابة على الآلة الكاتبة ، مولية ظهرها لنا .

وعرفت فى سكايف الرجل الذى رأيته فى صحبة سابى بنادى اليخت . واخبرته بأننى موفد من لدن مستر هيدلى .. واننى قصدته مدفوعا برغبتى فى التعرف على أحوال اليوجيين « والفقراء والهنود » واننى أطمع فى مساعدته .

وأبدى الرجل استعداده لمعاونتى بكل سرور . ومال فى مقعده الى الوراء ، وراح يتأمل سقف الغرفة . وتساءلت عما اذا كانت هذه الحالة من مقتضيات تفكير من يمارسون اليوجا . ثم عاد ليهبط من حالق سمائه ولينبىء بأنه سيدبر لى الأمر . وانه سيسأل المستر مونشى ليرافقنى وسيكون خير دليل لى . وأصر بعد ذلك على دعوتى للعشاء .

وتوجهت الى فندق الماى فير لأحيط سابى علما بما كان

وبقبولى دعوة مستر سكايف للعشاء • وكانت هذه أول مرة بعد خروجى من المستشفى أتناول فيها عشائى فى غير صحبة سابى • ورحبت بهذا التغيير كتجربة أولى لتغيير ما ألفناه • وقد قالت لى بعد أن استمعت الى :

ـ ترى ما هى اليوجا ؟•

ـ سأحكى لك عنهـــا بعد عودتى • الا اذا كنت ترغبين فى الذهاب معى وترين بنفسك •

ـ ولكنك ستقابل سكايف •

ـ لست أدرى لماذا لا تميلين اليه •

ـ لأننى لا أفهمه • انه شخص غريب الأطوار • وقـد يكون مرد هذا الى حبه لليوجا . اياك وان تنغمس فيها أنت الآخر مثله .

يقع منزل سكايف على تل مالا بار فى الطـــرف الثانى من الخليج بأقصى ضواحى المدينة • ورأيت مستر سكايف فى احدى نوافذ بيته • ولاحظت انه رآنى ولكنه لم يحضر لمقابلتى • وفتـح الباب أحد الخدم الذى أعلن حضورى • وبعد دقيقة ظهر مستر سكايف وتقدمنى الى غرفة الجلوس حيث قدمنى الى مستر مونشى وقدمه الى • وشد مستر مونشى على يدى مرحبا معلنا اغتبـاطه بالتعرف بى •

واتخذ كل منا مجلسه • وأمر لنا مستر سكايف بالشراب • وشرعنا نحتسى الويسكى ، الا مونشى الذى فضل عصير الليمون• ثم سمعت سكايف يوجه الى الحديث قائلا بعد أن أشعل سيجارة فى تؤدة :

ـ لقد تفضل مستر مونشى فوافق على أن يطلعنا على بعض ما يسترعى الانتباه هذه الليلة •

فعقب مونشى قائلا فى تواضع :

ـ أرجو أن أحقق لـكما ما تريدان •

فقلت له :

ـ شكرا ، هذا تفضل كريم منك •

وهنا نهض المستر سكايف عن مقعده قائلا :

ـ يحسن بنا أن نتناول العشاء الآن لنبكر بالذهاب . أليس كذلك يا مستر مونشى ؟»

- ٢ -

ولما تحركت بنا السيارة ، ســـــأل سكايف المستر مونشى قائلا :

ـ الى أين ستذهب بنا ؟

ـ أعتقد أنه يحسن بنا أن نبدأ بزيارة لالافيكرانا .

ـ وأظن أنه يحسن بنا أيضا أن نمر بطريق جرانت المطلة على الشيطان و ...

ـ حسنا . حسنا .

وتوغلنا فى طرقات ضيقة مزدحمة ، حتى توقفت بنا السيارة أخيرا . وتركناها وتبعت الرجلين فى ارفة ضيقة جانبية . وكان الأهالى من الهنود يحدقون فينا النظر . وحمدت الله على أن مستر مونشى يسير فى المقدمة ، لأنهم كانوا يتأملوننا كدخلاء على حيهم الذى كان حيا هنديا بكل معنى الكلمة . ثم انتهى بنا المسير الى مكان فسيح قد اكتسب أرضه بالعشب الأخضر وانتشرت الكلاب الضالة فى أرجائه ، واستلقت فيه هنا وهناك هيـاكل من البشر وكأنها جثث قد تخلفت عن احدى المعارك . وبدأنا نجتاز هـذه الأرض الفضاء ، حتى بلغنا رقعة من الأرض مسورة يتوسطها كوخ صغير مقام من عيدان الحنطة . وتوقف مستر مونشى عند باب السور المحكم اغلاقه بسلسلة ضخمة وقفل كبير . ثم حرك السلسلة حركة خفيفة ، جاء على اثر صليلها رجل يمشى على مهل ، حملق فينا بعينين زائغتين كعينى مجنون ، لا يدرك من حقيقة ما يقع نظره عليه شيئا . وما أن سمع صوت مســتر مونشى ، حتى أدار المفتاح فى قفل الباب وفتحه على مصراعيه . ومنه دخلنـــــا الى شرفة الكوخ ، ثم أعاد الرجل غلق الباب الكبير .

ورفع مستر مونشى مزلاج باب الكوخ ودفعه فاستجاب له . وانعكس ضوء المكان على وجهه ، فبدا لى بملامحه وابتسامته ، غير هذا الوجه الذى كان معى منذ لحظات فى منزل سكايف ، أو فى

الطريق الى هذا المكان • اذ انقلبت ابتسامته ، فصـــارت هادئة وادعة تساير الجو الجديد •

ورأيت فيما رأيت ستة رجال يجلسون فى نصف دائرة على أرضية الكوخ ، وقد اتشحوا بلباس من القطن أو الموسلين • وكان يجلس أمامهم رجل آخر على منصة ، منتصب القامة عارى الجسد الا من مئزر يستر عورته • وكان وجهه بلحيته المدببـة البيضاء وجبهته العريضة كقطعة من رخام قدت لتشبه وجه سقراط •

ودعانا مستر موسنى للدخول ، ثم أغلق الباب وأحكم رتاجه• وأشار بيده اشارة فهمنا منها أنه يجب علينا ان نجلس القرفصاء، وتبع هذا بأن انحنى بجسده على الأرض فى ســهولة ويسر حتى تحذو حذوه • ورأيت مستر سكايف يجاهد نفسه حتى يضـــم ركبتيه ، وأسرعت بدورى معتمدا على يدى ، محاولا أن أثنى ركبتى كما يفعل الآخرون • وقمت بمجهود كبير وأسندت ساقى بذراعى، وشعرت بألم شديد فى ظهرى ، وكان يجب بحكم هذا الوضع أن ينحنى رأسى الى الأمام . ولاحظت أن القوم وعلى رأسهم زعيمهم غرقى فى تأملاتهم • ولم يكن هناك من أثر للحياة فيهم جميعا ، الا حركة تنفسهم وخلجات جفونهم . ولقد خيل الى بادىء الأمر أن « السيد » كما يدعونه لا يتنفس من شـــدة سكونه • وكان السكون مخيما على المكان مما أفقدنى الشعور بتقدير ما مر بنا من دقائق أو ساعات فى جلستنا هذه • وخيل الى أن هذه الغرفة قد عزلت نفسها عن الكون بعيدا • وطغى على شعور غريب أغمضت معه عينى ولم أدر هل أنا فى عالم الحقيقة واليقظة أم أنا فى عالم الخيال والأحلام • ثم عدت لأفتح عينى وأتأمل « السيد » الجالس أمامى على المنصة ، فرأيته قريب الشبه بجثة رجل قد فارقتــه الحياة • بل ولاحظت أن سكون الموت يخيم على الغرفة كلها • مع فقدان الاحساس بالزمن ، الذى يقتضيه الموت •

وانتابنى بعد ذلك شعور طارىء • شعور بأن هـــذا الذى يخيم على القاعة ليس سكون الموت بالمعنى المعروف • بل هو شىء أسمى من ذلك وأعمق • انه احساس يسرى فى جميع كيانى هادئا

ملطفا مخدرا • احساس باعد بينى وبين الاهتمام بالزمن ، وحلق بى فى سماء من اللاشعور والوعى بما يدور حولى •

ولم يطل بى هذا الاحساس اللاشعورى ، وألفيت نفسى مرة أخرى أهبط الى عالم الحقيقة والواقع • وشرعت فى وعى أتأمل « السيد » ، الجالس على المنصة ، وأتنقل ببصرى بينه وبين أتباعه المخلصين ، وبين مستر مونشى ومستر سكايف ، ثم رحت أصور لنفسى ماذا يكون من أمر بيتر وميرفين وماريو عندما أسرد عليهم مغامرتى هذه ، أو اذا ما تصادف وشاهدونى فى جلستى هذه • بل ولقد بدا لى ما مر بى من تسلط روح « العقير » على حتى جذبتنى اليها واقتربنا معا من حافة عالم آخر ، فيه مدعاة للسخرية وتندر الزملاء وهأنذا أعود لأشعر بآلام هذه الجلسة غير المريحة ، وأتمنى لو انفض الاجتماع حتى أحرر نفسى من هذا القيد الثقيل •

وكأن أبواب السماء كانت مفتحة عندما تمنيت ذلك • فقد شعرت بحركة مفاجئة تسرى فى الغرفة ، واسترخى الجميع فى وقت واحد • ورأيت السيد فيكرانا يعود الى عالمنا وتدور عيناه فى مآقيها ثم تستقر على كعيون الأحياء ، بعد أن عادت اليهما نظراتهما الطبيعية وعاد اليه تنفسه الطبيعى • وبدأ يحرك يديه وكل عضلة من عضلات جسمه .. وعندئذ التفت مستر مونشى لناحيتى وابتسم •

وبدأ السيد يجول بعينيه فى الحاضرين ، وباشارة من يده قام اليه أحد أتباعه واقترب من المنصة ، ثم جلس تحت قدميه • وأمسك السيد بلوح كان موضوعا بجانبه قد سطرت عليه الحروف الأبجدية الهندوسية • وشرع فى تحريك أصابعه من حرف الى آخر بسرعة فائقة وكأنه يملى رسالة على تابعه • وتذكرت حينئذ أن السيد فيكرانا قد أخذ عهدا على نفسه بالتزام الصمت كما قيل لى • ولم يكن هذا التابع والمريد الا لسان حاله المعبر • ونطق التابع بما فهمه من اشارات سيده بلغة لم أفهم منها كلمة واحدة ، وان كنت قد أدركت من نظراته نحوى اننى المعنى بحديثه، وبدأ مستر مونشى يترجم ما يسمعه :

يقول « السيد » انه سعيد بهذه المفاجأة غير المنتظرة •
وأومأت برأسي تقديرا وشكرا • ثم استطرد مستر مونشي قائلا:

– ويريد السيد أن يعرف ما اذا كانت زيارتك هذه بدافع من حب الاستطلاع فقط ، أم انك تبحث عن معالم الطريق ؟

– قصدت الأمرين معا •

ولاحظت أن مونشي قد أضاف من عنده غير القليل لشرح نواياى ، لأننى لاحظت أن لالا فيكرانا كان يومىء برأسه راضيا مسرورا . ثم راح يحدق النظر في وكأنه يريد أن ينفذ الى أعماق نفسي . وانتظر الجميع ما سيصدر عنه . كما كان أتباع سقراط يقفون حوله ليتلقفوا الحكمة عنه .

وأخيرا . بدأ السيد يحرك أصابعه على الحروف الأبجدية .. ونطق التابع بصوت سيده ، وترجمها مستر مونشي بالتالى قائلا :
– يقول السيد انه لاحظ وجودك لفترة ما أثناء غيبوبته ، كما لاحظ انك كنت تراقبه • ويرى مما اجتمع لديه من ملاحظاته انك لم تكن جادا في دخول الدائرة الروحانية ، وأنك تساعد بدور الشك على أن تنمو وتنتشر في نفسك ، مما يباعد بينك وبين الدخول في عالم اليوجا بكل قلبك ووجدانك •

ثم استطرد قائلا :
– وقد تفضل بالموافقة على الاجابة عما قد يعن لك من أسئلة •
فقلت من فوري :

– هل يرى السيد أنه من الممكن أن يجد الانسان السعادة في مجال أقل من ذلك •

ونقل السؤال اليه وسمعت الرد سريعا •
– يقول السيد ان ذلك يستطاع تحقيقه • وهو يسألك لماذا تهتم بتوجيه هذا السؤال مع أنك تعرف الاجابة عليه • وهو يريد أن يصارحك بأن استعدادك لدراسة يوجا الجسد سيعينك على تذليل كل ما أمامك من صعاب ، واذا ما حدث عن المبادىء المسيحية التى يجلها السيد ويحلها من نفسه في خير مكان فانك لن تصل الى يوجا العقل .

وبعد برهة وجيزة تحركت فيها أنامل فيكـرانا مما يريد أن يتحدث به :

ـ انه يقول الآن ، انه مسرور لأنك لم تطلب منه ما يطلبه غيرك من الزائرين البريطانيين ، من قيامه بعرض الألعاب والخـــدع . وهو وان كان في استطاعته القيام بمثل هذه الأشياء . التي يستعرض قدراته وامكانياته ، الا أنه لا يرى في ذلك أكثر ممـــا ترونه في اللاسلكي كثمرة من ثمار عقول علمائكم . وهو يسلم بعظمة علمائكم وبمهاراتهم وسعة باعهم ، ولكنه يرى فيما يسلكونه من ســبيل للوصول الى ما هو أبعد مدى من عالمنا هذا ، ما سيمتد بهم الى ما لا نهاية له ، لبعد الشــقة وما يصادفهم فيها من صـعاب وسراب جميل خداع . وهو يعتذر بضيق وقته الذى يجب أن يخصصــه لتلاميذه واتباعه ، فهل لديك ما تضيفه الى ما سبق قبل أن نتفرغ لهــــــم . ؟

ـ كلا . الا اذا تنازل بتزويدى بنصيحة أحتفظ بها كذكرى لزيارتي هذه .

ولاحظت أنه على استعداد ليجيب على سؤالى . ورأيته يتخلل لحيته بأصابعه مستغرقا فى التفكير . ثم حدجنى بنظرة فاحصــة ثابتة . وبادلته نظراته ثم حاولت أن أشيح بوجهى عنه ، ولكننى لم استطع . وتبينت فى نظراته تحديا لى بأننى لن أستطيع هذا . وفعلا ظلت عيناى عالقة بعينيه . وشعرت بأنه سلبنى كل ارادتى حتى التحكم فى عينى . ولمست قوة تأثيره وسيطرته على . فقـد زاغ منى البصر وخيل الى أن هناك شبه ستار من الضباب تنـدل بيننا . ولم أر من خلال هذا الضباب الا عينيه تنفذان منه وتخترقان حجب الغيب من نفسى . ثم بدد هذا الضباب صوت تابعه وأعقبــه صوت مستر مونشى قائلا :

ـ ان السيد يقول انك تستطيع الكثير . وأنك بهذه الطاقة تستطيع أن تمنح السعادة ، وأنه يتعين عليك أن تكون حريصا كل الحرص فى اجتناء ثمرة هذه الطاقة . وهو يرى انك ستسعد وأنك ستشقى . وأنك عندما ستبلغ ذروة شقائك ، ستكون تعزيتك أنك

تدفع ثمن ما بلغته من ذرى السعادة والهناء ، وانك استطعت أن تسعد غيرك .

وعندئذ نهضنا من مجلسنا ، وحيينا وانصرفنا . وخرجنا الى الهواء الطلق الذى ملأت به صدرى . وفتح الحارس العجوز الباب الخارجى ، وانطلقنا فى طريقنا . وسمعت سكايف يسألنى :

ــ هيه .. ما رأيك ؟ .

لقد شاهدت عجبا . ولكننى أرى ان ما قاله لى يصدق على كل شخص . أليس كذلك ؟ أليس فى امكاننا أن نسعد ونسعد غيرنا ؟ أليست قاعدة الحياة أن نسعد ثم نشعى وهكذا!

- ٣ -

وعدنا ادراجنا ، وقدمت شكرى وتحياتى لمستر مونشى على ما قام به من أجلى . وتركنا مستر موسى عند حى بونبدو . ولما واصلنا السير فى طريقنا الى منزل سكايف بناء على دعوته لى لتناول كأس من الويسكى ، كانت الساعة لم تبلغ بعد الحادية عشرة . وصرف خادمه ، وجلسنا بمفردنا نحتسى كئوس الويسكى ونتجاذب أطراف الحديث ، كان يجلس فى مواجهتى ، وتطرق بنا الحديث الى اليوجا . وأدركت من حديثه سعه اطلاعه . ولمست ثقافته الجامعية . ثم تبين لى أن الحديث كان يدور فى دائرة مفرغة حول ذاته . ولاحظت أنه قريب الشبه بفينويك فى شدة اعتزازه بنفسه وتظاهره بطول باعه .

وعن عمد منه ، انتقل بنا الحديث بعد ذلك الى سابى . وبدأ يتحدث عنها كأمر لا بد منه . وسمعته يسألنى فجأة :

ــ اذن فأنت تتعلم اليابانية ، ما رأيك فى هاناكو ؟ .

وتظاهرت بأننى لم أفهم سؤاله . فأردف قائلا :

ــ مس وبى ؟ .

ــ آه .. انها خير معلم .. ان لغتها سليمة .

ــ ما رأى الآخرين فيها ؟ .

ـ رأيهم من رأيي •

فنهض عن مقعده وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وكأن شيئا ما يجثم على صدره •

فسألته بدوري :

ـ هل لك معرفة بها ؟ •

وفي الحق انني لم أكن ارغب في خوض حديث عنها ، وبالذات مع مستر سكايف • ولكنني في الوقت نفسه كنت مشغولا لأعرف منه المزيد ، وسمعته يقول ردا على سؤالي :

ـ بكل تأكيد •• أعرفها خير المعرفة

ـ أظن ان الطقس هنا لم يلائم صحتها في أول الأمر •

ولم تكن صحتها لتعنيه في كثير أو في قليل .. فأجاب :

ـ انها فتاة جميلة •

ثم حدجني بنظرة فاحصة ، وخيل الي أنه لم يأت بي الى منزله ويدعوني لهذه السهرة الا لأنه كان يشك في أمر العلاقة بيني وبين سابي •• بل ولقد توقعت أن يقول لي : « ان هذه العلاقة يجب ان تتوقف ! » الا أنه أردف قائلا ، وفي لهجة توحي بأنه يصر على أن يسمع مني رأيي :

ـ ألست من رأيي ؟

ـ أجل • فاني أراها جميلة فعلا

ـ انها في رعايتي هنا • لقد كان اللورد دوربستون الوصي عليها يقيم هنا في الهند • وهو من أعز أصدقائي • وهو الذي عهد الي بالسهر عليها •

ـ آه • هكذا

ـ انها فتاة غريبة الأطوار

ـ انها يابانية

ـ أجل ، أجل • ان اليابانيات يمتزن بحاذبية خاصة بهن ، لقد أتيح لي ان أعرف الكثير منهن •

ولاحظت وهو يصب لنفسه كأسا أن يده ترتعش • كما لاحظت أنه كاد ينسى وجودي • وأنه لم يكن يحاول أن يستطلع دخيلة نفسي بقدر ماكان يود أن يطلعني على دخيلة نفسه هو • فاستطرد قائلا :

ـ أجل .. ان هاناكو فاتنة . ان الرجل لا يطمع فى خير منها .
ونهضت واقفا وقلت له :
ـ يجب أن أنصرف الآن . لقد تجاوزنا منتصف الليل
ـ كلا يا صديقى . مازلت بحاجة الى أن أزيد من الحديث عنها مع شخص يعرفها .
ـ ولكننى يجب أن أعود الى غرفتى الآن .
ـ لم يزل فى الوقت متسع أ.. اليك بكأس أخرى . انا أعرف لماذا تريد أن تسرع بالانصراف . يمكننا أن نتصل بها تليفونيا . وسأخبرها بان احد تلاميذها هنا فى منزلى .
ـ ان الوقت متأخر
ـ ان من واجبى أن أسهر على راحتها
ـ ما أظن ان فى ذلك راحة لها
وأصر على الاتصال بها
وصممت أنا على الانصراف .. وأخيرا اتجهت صوب الباب وسلم هو بالأمر الواقع ، وودعنى عند الباب قائلا :
ـ أرجو أن تشرفنى بزيارتك فى أى يوم تشاء .
وربت بيـــده على كتفى ، مكررا دعوته لى بالعودة لزيارته . وكان على أن أقطع نصف ميل قبل أن أصـــل الى موقف عربات الفارى . وأمرت السائق بالانطلاق الى فندق الماى فير .

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل عنـدما وصلت الى الفندق . فنقدت السائق أجره ، واندفعت الى بهوالفندق مسرعا ، وقد حرصت على ألا يرانى أحد . ثم ارتقيت الدرج قفزا وطرقت باب غرفة سابى برفق . ودخلت لأراها جالسة فى انتظارى فاعتذرت لها عن حضورى فى هذه الساعة المتأخرة ، وصارحتهـا بأننى لم أستطع ان آوى الى فراشى قبل ان أراها . وسردت عليها باختصار تجربتى مع اليوجا .. ثم لاحظت انها تضع بجانبها على الفراش دفتر يوميات ، حاولت أن أطلع عليه فرفضت . والححت فأصرت على الرفض . وسألتها :
ـ ألديك من أسرار تخفيها عنى ؟
ـ أنت سر حياتى .



ولما اطمأنت الى اقتناعى بردها • سألتنى أن أحدثها عن مستر سكايف وعن رأيى فيه •

فقلت لها :

ـ انه رجل غريب الأطوار •

ـ هل تحدثتما عنى ؟

ـ قليلا

ـ وماذا قال لك عنى ؟

ـ قال انك جميلة ، وأن من واجبه أن يسهر عليك

ـ هل هذا كل ما قاله عنى ؟

ـ لم يقل غير ذلك

ـ كلا انك لا تريد أن تصارحنى بالحقيقة • أرجوك أن تخبرنى بكل ما قاله عنى • فان فعلت ذلك اطلعتك على مذكرتى

ـ أؤكد لك بشرفى أنه لم يكن هناك أكثر مما قلته لك

ولكنها أصرت على انى أخفى عنها شيئا • فعجبت من أمرها وسـألتها :

ـ ترى ماذا تحسبين أن يكون قد قاله لى ؟

ـ لطالما وددت أن أصارحك بذلك • ولكننى الآن أجدنى راغبة فى عدم مصارحتك بالأمر ، خشية أن يعكر هذا صفو سعادتنا •

ولمـا ألححت • تضرعت الى قائلة :

ـ أرجوك الا تلح على ، ولنؤجل الخوض فى هذا الحديث •

وكنت بسبيل مواصـلة اصرارى على أن أعرف كل شىء • ولكننى سمعت وقع خطوات فى الدهليز ، فأمسـكت عن الكلام وأرهفت السمع • وتبينت ان القـادم ينجه بخطواته صوب غرفة سابى • وبالرغم من ذلك ، كاد قلبى يقفز من جنبى فزعا عنـدما طرق القادم باب غرفتها • وقلت لنفسى : ان شيئا ما وشيك الوقوع وكأن القدر قد أحكم توقيت هذه اللحظة فى نفس الوقت الذى كنت سأسمع منها ما كانت تخفيه عنى • لقد أصبحنا فى طريق مسدود لا رجعة لنا منه • فسألتنى سابى وهى فى فزع وهلع :

ـ ما عسى أن ترانى فاعلة ؟

ـ نادى من الطارق ؟

ففعلت • وسمعنا صوت الحارس الليلى يقول بالانجليزية :

ـ مكالمة تليفونية لك

ـ لى أنا ؟!

ـ أجل • مستر سكايف على الخط . وافهمنى أن اخطرك بأن الأمر عن شيء عاجل

وأسقط فى يد سابى ، ولم تدر ماذا تفعل • واستبدت بها الحيرة واشتد جزعها قائلة :

ـ لن أذهب

ـ بل من الخير لك أن تجيبى النداء

ـ انها بداية منزلق الطريق ، ولا يمكن لأحد أن يقف فى طريق أحداث القدر •

وأصرت على الرفض ، ولكننى نصحتها بالذهاب حتى ترى ماذا يبغى من هذه المحادثة .. وبعد أن ترددت قليــلا عملت بنصحى وأسرعت الى الخارج •

وجلست فى انتظــارها أقلب الأمر على كل وجوهه • ودار بخلدى انه يحسن بى أن انصرف واتجنب ما عساه يكون من مواقف وداع أليمة • وعجبت من أمر هذه الحياة وأقدارها وكيف تنتقــل بالمرء سريعا من سعادة الى شقاء ومن شقاء الى ســعادة فى توقيت محكم ، دون أن يكون للانســـان ارادة فى ذلك . فتشعره بضآلة شأنه وبأنه لا حول له ولا قوة •

ثم تساءلت فيما بينى وبين نفسى عن السبب فى كل هذا الذى يجول بخاطرى • ولم أجد سببا معينا ولا تفسيرا لشعورى هذا الا ان قلبى كا يحدثنى بأنها النهاية •

وأخيرا أقبلت سابى تقول :

ـ لقد كان جد مخمور

ـ أعرف ذلك

ووجدتها تقبلنى وتهمس فى أذنى !

ـ ألم تعد تحب بعد سابى ؟

ـ ولم لا ؟ لعلنى أنا الآخر شبه ثمل
ـ لماذا لا تقبلنى ؟

فقبلتها • ولكنها كانت قبلة فاترة • ان القبـــل كالسـعادة لا تظاهر ولا ادعاء بها • انها احساس فى القلب يتجاوبه وجدان المرء • ولاحظت أنها شعرت بهذا الفتور وابتأست • وتبادلنا تحية المساء فى برود •

الفصـــل الرابع

- ١ -

ولم أتحرق شوقا فى اليوم التالى لحضور الفصـــل الدراسى المخصص لها • ولما حضرته كان أسوأ فصل شهدته • بل وجلست أترقب أن تسرع دقائقه فى الانتهاء •

وكانت هى بادية التعاسة ظاهرة الشجن .. ولم يكن ثغرها ليفتر الا عن ابتسامة باهتة اذا ما دعا المجال الى ذلك . وقد تجنبت أن تلتقى عيناها بعينى ، وكنت أشيح عنها بوجهى •
وشاع جو من الفتور بيننا ، حتى أنها عندما دعتنى لأســتقل القارب معها ، اعتذرت بأننى ذاهب الى نادى الكريكيت واننى افضل قطع المسافة سيرا على الأقدام •

ولم يكن فى نيتى أن أتوجه الى النادى ، ولم يكن هذا منى الا ادعاء لعدم رغبتى فى أن أستقل العربة معها . ولم تكن هذه الرغبة منى الا عن شعور كاذب ، لاننى كنت فى الواقع أتحرق شوقا لقضاء السهرة معها . وأحسست بأن الأمور تختلط على وبأننى لم أعد أدرى من أمر نفسى شيئا . ورحت أستعرض ما كان فى الليلـة السابقة فلم أستطع أن أحـدد منه شـيئا ، وتبينت أن أفكارى مشوشة متداخلة . ولكننى كنت أعرف اننى فى غير راحة نفسية ،

بعد ما أكون عن صفاء الذهن وهدوء القلب . وليس من شك فى أن هناك ما قد أفسد جو هنائى وسعادتى ، ولكننى كنت عازفا عن التوغل فى سبر أعماق هذا الشىء ، خوفا ووجلا . انه الشك القاتل الذى ينغص على الناس حياتهم .

صفاء الذهن وهدوء القلب . وليس من شك فى أن هناك ما قد أفسد جو هنائى وسعادتى ، ولكننى كنت عازفا عن التوغل فى سبر أعماق هذا الشىء ، خوفا ووجلا . انه الشك القاتل الذى ينغص على الناس حياتهم .

وكان بيتر قد أعد لزملائه المقربين سهرة دعا اليها لامب وفتاته، ومرفين ، وماريو وفتاته الجميلة . كما دعا اليهـــا روزى التى أصبحت محل تقدير الجميع . وليس من شك فى أننى كنت فى رأس قائمة المدعوين

وتناولنا عشاءنا فى مطعم هندى ثم عدنا الى الفندق . وهنـاك لهونا وشربنا وعبثنا وطربنا ، وكنت أحاول أن أندمج مع المجتمعين فيما كانوا فيه حتى أنسى التفكير فى سابى ، وفيما شغلنى من أمرها .

وانفرط عقد المدعوين . وفضلت أن أتخلف لأجلس مع روزى فى هدوء . بل ولعلنى فعلت ذلك لأننى شعرت بأنها كانت ترغب فى هذا . وأشعلت لفافة تبغ لنفسى ، وأشعلت لها أخرى ، وتطرق بنا الحديث الى سابى . قالت لى :

ـ لقد حدثنى بيتر بعلاقتك بها .

ـ ترى ماذا قال لك ؟

ـ لا تخف .. انه لم يتحدث بهذا لغيرى .

ـ ان علاقتنا قد أصيبت بصدع شديد

ـ وكيف حدث ذلك ؟

ـ لست أدرى . لعلها الغيرة

ـ الغيرة من ماذا ؟

ـ من المجهول .

ـ قد يكون الأمر كله مجرد تخيل كاذب للأمور

ـ قد يكون ذلك

ـ وبالرغم من شعورك هذا فقد آثرت الهرب

ـ أجل . قبل أن يستفحل الأمر

ـ ولماذا لم تحاول أن تتثبت مما آلمك ؟ ألست ترى بتصرفك هذا أنك تسيء الى انسان دون مبرر وبناء على وهم خاطيء ؟

ـ انها يابانية وأنا انجليزى ، وبلادنا فى حالة حرب طاحنة ، وهذا يكفى .

ـ كلا . ليست هذه بمشكلتك . انك تهرب من الواقع

ـ اذن . ما دمت قد عرفت المشكلة الأساسية ، فماذا ترين من حل لها ؟

ـ وهـــو حتى آتى مهما قلت لك ، سأستطيع أن أقضى على ما أعقد نفسك . هيا الى فراشك . انك شخص معقد لا تدرى ماذا تريد وماذا تبغى . أخلد الى النوم لتريح ذهنك المكدود . الى الصباح فقد ينير لك ضوء النهار ظلمات الطريق

ونهضت فعلا . وتركت روزى ، ولكن ليس الى فراشى ، بل الى الطرقات أهيم على وجهى . ولم افزع الى النوم لأجد فيه راحة نفسى ، بل فزعت شربا وسرت على غير هدى . وأخيرا قادتنى قدماى الى حيث أجد سبى لأحتمى بها مما يجثم على صدرى وينوء بحمله رأسى .

- ٢ -

لقد عرفت أنها فى قلبى بين أعز شـــغافه ، واننى أحبها حبا يسرى مع كل قطرة من دمائى وينفذ الى خلايا كيانى .

وبعد أن استقر بنا المقام ، قبلتنى قبلة كلها الحنان قائلة :

ـ ميشيل ، كنت أريد أن أصارحك بكل شيء منذ البداية . وان كنت لم أفعل ذلك ، فهذا لأننى كنت حريصـــة على ألا أحرج شعورك فتتوقف عن حبى . فاذا ما وعدتنى الآن أن ما سأخبرك به لن يؤثر فى حبنا ، فسأحكى لك كل شيء

ـ أولا ، أعدك بذلك ، وان كنت لست بحاجة لأن تخبرينى بشيء ، فالأمر عندى سواء .

وفعلا لم يكن ما صارحتنى به بذى بال ، ولم يكن له من تأثير

على حبى ، اللهم الا أنه ازداد اشتعالا • ولقد بدت فاتنة مثـــيرة وازدادت جمالا وحسنا فى عينى ، وهى تسرد على مسامعى :

ـ كان ذلك عندما كنت طالبة بالمدرسة وقرر والدى أن يزوجنى من أحد أصدقائه اليابانيين • وكنت أراه بشعا لا يطاق ، وأننى لن أرضى بأن يظلنا سقف واحد . وكانت والدتى مضطرة لمجاراة والدى الذى كان مصمما على اتمام هذه الصفقة . أجل . فقد كان يرى فى اتمام هذا الزواج صفقة لا أكثر ولا أقل • ولمـــا صممت على رأيى بالرفض . اشتد فى تعنيفى وزجرنى وهددنى . وألحفت والدتى فى الرجاء باكية منتحبة لأقلع عن عنادى ، وتوسلت الى فى لجة من دمعها أن أطيع والدى

ـ وهل تم الزواج ؟

ـ كلا • لم يتم • وإن كنت قـــد عقدت النية على الاستجابة لالحاح والدتى التى كنت شديدة التعلق بها • الا أنه قد حـــدث ما لم يكن فى الحسبان . وما أنقذنى من اتمام هذا الزواج • فقد كان هذا الرجل يتردد على منزلنا ، وكان أحيانا يصطحبنا جميعا للمسرح وذات مساء بدرت منه بادرة استاء والدى منها • ولم يستطع أن يحدثنى فى أمر زواجى من هـــذا الرجل ثانية . ثم اصطحبنى معه الى انجلترا . الى آخر ما تعلمه من ذلك مما سبق أن سردته على مسامعك .. ثم كنت انت النور ، الذى تدفق فبدد ظلمة حياتى ، والقبس المشع فى كيانى كله .

ولم أجـــد من الكلمات ما أستطيع أن أعبر به عما يختلج فى وجدانى ويعتمل به نفسى • غير أن أطوقها بذراعى وأغطى وجهها بالقبـــل •

ثم استفسرت منها عن سبب تجنبها لمستر سكايف وخشيتها منه • وصدق حدسى عندما سمعت منها أنه قد حاول أن يبثهـــا لواعج غرامه بها ، فصدته ونهرته وأردفت قائلة :

ـ تلك هى قصة حياتى وما فيها من خفايا • ولم يعد فى أى جانب منها شىء يخفى عليك

ـ هذا عن الماضى • ولكننى لا أعرف شيئا عن المستقبل • فهل تنتوين العودة الى اليابان بعد انتهاء الحرب ؟

ـ لست أدرى • دعنا من المستقبل ولنعش فى حاضرنا
ـ ان المستقبل سيصبح حاضرا فى يوم من الأيام
ـ أرجوك ياميشيل ، دع المستقبل لما قدر له ، ولننعم بحياتنا وبحبنا وبوجودنا الحاضر . لا تعكر صفو الحياة بالتفكير فى نبش دفائنها •
ـ انك تعرفين اننى أحبك • ومن دلائل الحب الصحيح أن يهتم المرء بحياة من يحبه ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا
ـ أعرف ذلك • وأريدك أن تعرف ايضا ، انك لن تتزوج منى أبدا • فلست أرضى لنفسى بأن أكون عبئا ثقيلا على حياتك • ان كل ما أريده منك أن تشاركنى سعادة الحاضر دون قيد أو ارتباط بوعد • أرجوك أن تشاركنى هذا الشعور وهذا التمنى • كما أتوسل اليك أن تضع نصب عينيك أننى لن أكون زوجة لك فى يوم من الأيام •

ـ فليكن • لك ما تشائين • وسأجتهد ألا أنسى هذا •
ولكننى كنت فى حيرة مما قالت •

الفصل الخامس

ـ ١ ـ

منحنا اجازة لمدة شهر ابتداء من منتصف شهر يونيو • وكان موعد هبوب الرياح « الموسمية » على بومباى قد اقترب ، ولكننا رحلنا عنها ، قبل أن نقاسى منها الشيء الكثير •

ولقد كنت أعد الأيام والليالى ساعة ساعة ، وأتوق لقضاء هذا الشهر فوق سفوح الهملايا مع سابى • وكنت أتخيل أيامى معها ، من شدة تصورى لهناء ساعاتها ، حلما كنت أخشى ألا يتحقق • لقد كان هذا الشهر فى تقديرى هو المستقبل الذى قد لا يكون بعده

اى مستقبل ، انه المستقبل الوحيد الذى سمحت لى ولنفسها بأن نفكر فيه ٠

واستأجرت مقصورة خاصة مكيفة الهواء فى القطار الصاعد الى سفوح الهملايا ٠ وذهبت مبكرا الى محطة سكة الحديد ، ومعى باهادور ، الذى كان يحمل معه جميع ما نحتاج اليه فى هذه الرحلة من فاكهة الى أزهار الى آلة تصوير الى مياه مثلجة ، الى آخر هذه الحاجيات ٠

وكنت من فرط سعادتى ، اتصل بسابى بالفندق حتى اطمئن على أنها لن تتأخر ٠ ولم تحتمل أعصابى عد الدقائق الباقية على موعد وصولها ، لأننى كنت أخشى وقوع ما قد يعكر على صفو حياتى ٠

وأخيرا أقبلت سابى تتهادى كنفحة النسيم الرقيق ٠ ووصلت فى الدقيقة التى اتفقنا عليها ٠ وحيتنى بوجه يفيض بشرا ، ثم صعدنا الى مقصورتنا ٠ وتحرك القطار ليبدأ مرحلة من حياتنا كنا نسبق عمرنا لنعيش فيها قبل أن تحتل مكانها من الزمن ٠ وتأملت سابى ، وتأملت كل ما يحيط بى ، ونظرت من خلال النافذة لأرى بومباى بمبانيها وهى تغيب عن ناظرى ، وكنت أحاول أن أعيش فى كل دقيقة تمر بى طولا وعرضا ، لأننى كنت أعرف اننى أمر بلحظات لن تتكرر فى حياتى ٠

وتوقف القطار باحدى المحطات فى صباح اليوم التالى ،ورأيت مظلة تمتد على رصيف المحطه ٠ وظل القطار يتحرك ببطء حتى توقف نهائيا ، بحيث أصبحت احدى العربات فى مواجهة المظلة تماما ٠ وطال وقوف القطار قبل أن نتحرك من جديد ٠

ووقع نظرى على لافتة عليها اسم المحطة ٠ وعرفت منها أنها محطة دهانابور ٠ فأدركت لتوى أن المظلة كانت للنواب الذى كنت زميلا له فى المدرسة ٠ فكلفت باهادور بالتحرى عما اذا كان النواب بالقطار ٠ وعاد بعد قليل ليخطرنى بأنه بالقطار ٠ فبعثت بمذكرة معه اليه ٠ وجاءنى الرد على ورق أنيق مصقول ، بخط جميل

وقيق ، يدعونى الى تناول الغداء فى عربته . ولم يكن فى نيتى أن أقضى دقيقة واحدة دون أن تكون معى سابى ، فاعتــذرت بأن زوجتى معى • وبعد قليل أرسل النواب دعوة أخرى لى ولزوجتى•

وفى الحق أننى كنت اهيب عدا اللقاء • ولكن مقابلته الحارة لى قضت على هذا الحرج ، ثم قدمنا الى زوجتــه الجميلة التى لم تتجــاوز التسعة عشر ربيعا ودعت الروجة ســابى للجلوس الى جانبها ، وكانت تسبهها قواما ، حتى ليخيل للرائى من بعيد أنهما توءمان . ولاحظت أنهما منفاهمتان وأنهما قد ساد بينهما جو من الود الصافى • أما نحن ، الرميلان القديمان ، فقد عدنا بحديثنا الى أيام الدراسة والصبا . وبين كئوس الويسكى والدخان المتصاعد من لفافات التبغ ، امتد بنا الحديث الى كل ما هو شيق جميل . وحان موعد الغداء ، ومدت المائدة بكل ما لذ وطاب من أشــــهى الأطعمة ، وكدت أسأل صديقى كيف يمكن أن يقدم لنا كل دلك وهو لم يكن يعلم بحضورنا ، ولكننى سكت فى آخر لحظـــة عن الكلام الغير المباح فى بلاد الشرق الكريمة التى تحب الضيفان .

وقضينا معا وقتا جميلا ، ثم نهضنا نستأذن فى الانصراف ، فأحسن وداعنا كما أحسن لقاءنا ، وسألنى ألا انقطع عن الاتصال به . وعدنا الى مقصورتنا مذهولين من كل هذا البذخ ، وقد عقدت ألسنتنا الدهشة من كثرة ما كان يحيط بنا من مظاهــر الثراء • وبعد أن استقر المقام ، وزال ما بنا من آثار تلك الساعات الحالمة ، وعدنا الى عالمنا المتواضع البسيط ، جلسنا نتحدث فيما رأينـــا وشاهدنا .

ووصل القطار الى محطة دلهى فى المساء وتركناه لنســتقل قطارا آخر لم يكن به مقاصير خاصة مكيفة الهواء • وكان الطقس شديد الحرارة • فقاسينا منه الأمرين • وكان علينـــا أن نقطع ما لا يقل عن ثلثمائة ميل لنصل الى ســفوح الهملايا . ثم تركنا هذا القطار الى غيره فى صباح اليوم التـــالى • وبدأنا نقترب من منطقة الجبال عند ظهر هذا اليوم • وكانت المنـــاظر التى تحيط

بنا رائعة أخاذة • وعندما بلغ بنا القطار محطته النهائية ، فضلنا أن نستغل سيارة خاصة نقطع بها الخمسين ميلا الباقية •

وصعدت بنا السيارة الطريق بين كثير من الصخور وفى مسالك شديدة الانحراف وعلى انحناءات تشرف على الهاوية ، مما كان مثارا لفزعى وخوفى الشديدين ومن تضرعى المتكرر للسائق أن يخفف من سرعة سيارته بح صوتى ، أما صاحبتى فقد اضطجعت فى مقعدها غير عابئة بشيء مما يجرى حولها • كانت سعيدة هانئة تتأمل ما حولها فى غبطة وسرور • وكان الطقس يزداد تحسنا ولطفا كلما ارتفع بنا الطريق ، وملأنا صدورنا بنسيم الجبال الذى يرسل البهجة والانتعاش ولم تفسده زحمة الحياة • وانتشينا بخمرة هذا الهواء ، كما كنا ننتشى بشمبانيا الكئوس • وبلغنا « جالى تال » وقد سكرنا بخمر الطبيعة والجمال •

- ٢ -

كان مستر هيدلى هو الذى دلنا على هذا المكان ، بعد أن سألته أن يعين لى مكانا هادئا بعيدا عن زحمة الحياة • وان كنت لم أوضح له السبب فى طلبى هذا ، الا أنه فهم ما أبغيه وابتسم ابتسامة العارف ببواطن الأمور وهو يقول :

ـ جالى تال هى بغيتك • مكان هادىء جميل بعيد عن العمران يمتاز عن غيره من نواحى تلك البقاع ، ببعده عن كل مظاهر الحياة الصاخبة بما فى ذلك الرقص •

وما أن وقعت أنظارنا على هذا المكان ، حتى عقدت الدهشة ألسنتنا ، وكنا أشبه بطفل فض الغلاف عن هدية عيد الميلاد ، ففوجىء بروعتها وبجمالها وبأنها هى ما كان يحلم به من بين جميع الهدايا التى تقدم فى مثل هذه المناسبة •

كان المكان عبارة عن بحيرة أودعتها الطبيعة فى أحضان الجبال التى كانت تعلوها بقممها الشامخة واحدة بعد أخرى ،

مختلفة الألوان ، متغايرة الأشكال ، حتى تبلغ عنان السماء بيضاء ناصعة كالثلج • وقفنا ننظر اليها ونتأملها مأخوذين بروعتها •

ولم يكن يحيط بالبحيرة أكثر من عشرة منازل ، وعلى بعد ميل منها كانت تقع القرية • وكان الفندق الذى نزلنا به على ارتفاع مائة قدم من سطح البحيرة ـ مما أتاح لنا أن نشرف على هذا المنظر البديع من نوافذ حجرتنا • وتملكنا احساس طاغ بأننا نشرف من نوافذنا على العالم كله ، ونعلو بها عن الصراع البشرى الدائر على سطحها • وقدم باهادور الشاى فى غرفة الجلوس الملحقة بغرفتنا ، وجلس يتأمل كل ما يحيط بنا من جمال ، مسحورا مبهورا •

وكان بالفندق زوار غيرنا . وكانوا جميعا من الانجليز ، غير واحد فقط من الهند هو السير رام ناث ، الذى كان سيدا بحق ، من خريجى جامعة اكسفورد والسوربون وغيرهما . وفى الواقع انني أعجبت بالرجل وبنظرته للامور ، وبخلقه الرفيع . وبلغ اعجابى به حدا كنت أفضل معه أن أتخلف فى ردهة الفندق لأقضى بعضا من الليل معه وأدع سابى تسبقنى الى النوم .

ولقد تعلمت منه الكثير • فقد كانت له آراء فلسفية فى أدق نواحى الحياه • ولقننى فيما لقننى أن هناك فرقا كبيرا بين دعة الحب وبين دعة الضعف •

وكان من بين النزلاء سيدة انجليزية تصطحب ابنتيها وولدها ، وحل بيننا التفاهم وقضينا ساعات جميله فى رياضة ممتعة مثيرة على ظهر الجياد . وكانت أولى البنتين تدعى مرجريت والاخرى جنيفر •

وكان يطيب لنا من وقت لآخر أن نقوم برحلات قصيرة سيرا على الاقدام ، حيث نقضى اليوم فى عزلة عن العالم ، بين السماء والماء وفى أحضان الطبيعة الخلابة • ولن أنسى هذا اليوم الذى قضيناه تحت ظل دوحة انفردت بجمال بقعتها ، حتى أننى كنت لا

ادرى أهى دوحة فى السماء ، أم شجرة على الأرض • فقد كانت هناك لحظات لا يمكن لقلمى هذا أن يفيها حقها من وصف ، أو أن ينقلها حروفا على هذا الورق • فاننى مهما أطنبت فى وصفها ، فما أظننى الا بمشوه حقيقة صورتها الرائعة الجمال •

وأيام الهناء تمضى سراعا ، ولا نكاد نحس بهـــا من فرط سعادتنا • وهى تمر ساعات أو قل دقائق لا ندرك لها حـــدا أو عدا ـ بحساب الزمن ـ • وهكذا كانت أيام هذا الشهر تنساب من حياتنا كما ينساب الماء من بين أصابعنا لا نستطيع له قبضا •

وفى ساعة صفاء هادئة ، جلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، لنستعيد به حياتنا منذ أن وقع نظرى عليهـا لأول مرة ، الى أن تطرق بنا الحديث الى أننا لن نستطيع أن نعود الى حياتنا الأولى ، كل فى غرفته بالفندق بعيدا عن الآخر ، واننا يجب أن نعيش فى بومباى فى منزل واحد يظلنا سقفه • قلت لها :

ـ سابى بقى أمر يشغل بالى •

ـ ترى ماذا عساه أن يكون ؟•

ـ انه امتداد لسعادتنا • هل ستتزوجين بى ؟•

وران علينا صمت مطبق ثقيل • وحرصت ألا تلتقى عينـــاى بعينيها • فما كنت أتوق الا الى سماع صوتها ردا على سؤالى • ولكننى ادركت أنها تبكى • فلما التفت اليها قالت لى :

ـ ميشيل ، لقد سبق لى أن صارحتك بذلك • وأرجـوك ألا تعيد على مسامعى هذا العرض • عدنى بذلك • هذا رجائى •

ـ ٣ ـ

وقبل رحيلنـا ببضـعة أيام ، ازداد تعلق مرجريت وجنيفر بسابى ، وتسابقت كل منهما فى التعبير عن شعورها بتقديم هدية لها ، تقديرا وذكرى لهذه الأيام الجميلة . ورأيتهم تذرفان الدمع

كلما اقتربت يوم رحيلنا عن جالى تال . ثم اتفقنا بعد ذلك معا على تقديم هدية مشتركة لى ، تقديرا واحتراما لشخصى ، مع رجائهما أن أقبلها وأوانق سلفا على أن أكون بالنسبة اليهما العم ميشيل •

وحل يوم الرحيل • واغرورقت عينا سابى بالدموع وهى تودعهم • وقبلتها الأم فى حنان الأمومة • وذرفت الصغيرتان الدمع وعلا صوتهما نحيبا • ولما خرجنا لنستقل العربة ، وجدناها مزينة بالزهور وغصون الأسجار الخضراء ، فازددنا تأثرا بمظاهر حب هاتين الفتاتين لنا . وانطلقنا بعيدا عن جنة النعيم ، وأنهينا بتحيات الوداع ، فترة من حياتنا لم تكن من عمرنا ، اختلسناها من أحكام القدر •

الفصل الســـادس

- ١ -

واضطررنا أن نتخلف بدلهى يومين • وكان الطقس حارا حتى خيل الينا ان أبواب الجحيم قد فتحت • وكان القـــدر أراد أن يضاعف من أسفنا على ترك ما كنا فيه من نعيم ، عندما كنا فى تلك البقعة التى ترتفع عن سطح البحر بحوالى ثمانية آلاف قدم ، فواجهنا بهذين اليومين من أيام السعير ، ونزل بنـــا من حالق سمائنا الى أعماق الجحيم •

وعدنا الى بومباى لنجد الرياح الموسمية فى عنفوان ذورتها ، فحولت الشوارع أنهارا ، وملأت الجو رطوبة زادت من وطأة طقسها الحار •

وقصد كل منا الى غرفته بفندقه ــ وتوجهت الى المدرسة فى الصباح • وكنا قد اتفقنا على أن تتخلف هى يوما آخـــر حتى لا نترك مجالا للقيل والقال •

وخرجت في صحبة بيتر لتناول طعام الغداء . واخترنا فندق تاج مكانا يصلح لجلسة هادئة ، نستطيع فيها أن نتحدث حديثا يطول بقدر ما طالت مدة فراقنا . وبدأ يسرد على مسامعي ما كان من أمر ميرفين ومحاولته بشتى الأساليب أن ينزح عن الهند ، مرة بادعائه المرض ، وأخرى بانهيار أعصابه ، الى أن أودع المستشفى أخيرا ، وعومل معاملة المجانين . ثم أردف قائلا :

ـ أما عني ، فقد انتهيت من كتابة قصتي .

وفي المساء بالفندق . سمح لي بتصفح القصة ، ووجدت أنها لم تكن قصة بوليسية . بل كانت حوادثها تدور حول ما جرى له أيام كان في جبال البيرينيز عند قيام الحرب ، وما كان من محاولته الهرب الى اسبانيا وسجنه بها كما لاحظت أن صفحات الكتاب تسودها روح شفافة رقيقة ، وشعور وطني فياض .

وبينما كنت منهمكا في قراءة القصة ، أقبل فينويك ـ وكان بيتر قد انصرف منذ قليل ـ وأدركت من حالته أن هناك شيئا يشغل باله ، وانه كان يحاول أن يتظاهر بغير ذلك . ولما وجدني لا ألقي اليه بالا ، سألني أن أذهب معه لتناول كأس من الخمر في مكان ما ، فأبديت له رغبتي بأنني أفضل أن أستكمل قراءة القصة ، فألح على أن أمنحه من وقتي نصف ساعة فقط ، ولما رفضت مرة أخرى . راح يذرع الغرفة ويتأمل ما بها قطعا للوقت. فقلت له أخيرا :

ـ هات ما عندك . ان لديك ما تود أن تفضي به الي .

ـ أصبت في الواقع أنني أرغب في بحث بعض الأمور معك، وكنت أفضل أن يكون هذا في جلسة يسودها جو من البساطة ورنين الكئوس .

ـ بوسعي أن أصغي اليك الآن بنفس الروح التي كنت تمهد لها . هات ما عندك .

ـ انه حديث خاص .

ثم جلس على حافة الفراش واستطرد :

ـ وانني لواثق من انك خير من سيعي ما أقول ٠»
وأطرق قليلا قبل أن يواصل حديثه قائلا :
ـ قيل لي بأن خير سبيل لتعلم لغة ما هو معـاشرة امرأة تتقن هذه اللغة ٠

ـ اذا كان هذا صحيحا فلماذا لم تسلك هذا السبيل ؟ ٠»

ـ انك خير من يعرف السبب في ذلك ٠

ونهض على قدميه ونهضت ، وواجه كل منا الآخر في تحـد كاد ينقلب خصاما وشعرت بالدم يغلي في عروقي ، واجهدت نفسي حتى أسيطر على أعصابي وأتحكم في زمامي وقلت له محتدا :

ـ وما شأنك أنت بذلك ؟٠

ـ انني الضابط الأعلى في فرقتنا الدراسية ٠

ـ وهذا لا يعطيك أي حق في التدخل في شئون مس وبي أو في شئوني الخاصة ٠

ـ وأعرف أنكما ذهبتما معا تقضيان شهر العطلة الصيفية ٠»

ـ فليكن ٠ ليس هذا من شأنك ٠

ـ لو لم تكن يابانية لما اعترضت على هذه العلاقة ٠٠

ولم أشعر الا بيدي ترتفع لأهوى بها على وجهه ٠ فحملق في وجهي ولم يحاول أن يرد اللطمة ٠ ولكنني تبينت في نظـراته كل علامات الحقد والمرارة والألم ، ثم استدار ليترك الغرفة ، وانصرف والشرر يتطاير من عينيه غضبا ٠

ـ ٢ ـ

وعجبت من تصرفه هذا وازداد عجبي عندما لم يبد منه ما يدل على انه اتخذ أي اجراء ضـــدي لاهانتي له ، مع انه كان بوسعه هذا ٠ وما كان منه عندما التقينا في صباح اليوم التالي الا أن قال لي :

ـ كوين ، فلنعتبر أن ما حدث في الليلة الماضية كأن لم يكن٠ هذا فيما يتعلق بما حدث بيني وبينك ، أما عن الموضوع من ناحيتا

العامة ، فان ضميرى لا يرضى عن اغفاله ؟• ولذلك ، سأتصرف بما يرضى ضميرى رسميا ، أما بشأن ما يمس علاقتنا وشخصى ، فانى متنازل عن حقى •

ــ فليكن • اعتبر أن هذا هو رأيى أيضا •

وكان البريجادير قد علم بامر علاقتى بسابى وترقبت نتيجة ذلك بقلق شديد ، وبالذات فيما يختص بسابى ، التى خشيت أن تفقد عملها بسبب اتصالها بى وسيعقب ذلك حتما أن تتبدد سعادتنا ، ويصبح ما كنا نعده لها ، أحلاما لم تتحقق وقصورا على الرمال لم تلبث أن أزالتها الرياح وبدأت أندم على ما فرط منى •

وأخيرا حلت اللحظة التى كنت أخشاها • ودعيت الى مكتب البريجادير ، الذى دعانى بادىء بالجلوس بمجرد أن حييته • وبعد أن قدم الى لفافة تبغ ، سألنى عن مدى تقدمى فى تعلم اليابانية • فقلت له :

ــ اننى راض عن النتيجة بصفة عامة •

ــ ان هذا الرضا هو أهم ما فى الامر • الرضا والاقتناع بأن ما يتعلمه المرء نافع مفيد • كنت مدرسا زميلا لى فى كامبردج •••

وراح يسرد على مسامعى ذكرياته فى تلك الفترة ــ انقضت هنا لفافة تبغ أخرى ــ ثم عرج فى حديثه الى الحديث عن العطلة السنوية وكيف قضيتها • فأخبرته بأنى قضيتها فى تاى بال مع صديق • ولم يسألنى عمن عساه يكون هذا الصديق • بل عنى بسؤالى عن الجبال والبحيرة وجمال الطبيعة فى هذا المكان • وبعدها انتقل الى مغامرتى فى بورما وما قاسيته من متاعب • وأخيرا قال لى ، متعمدا أن يتظاهر بأن ملاحظته جاءت عرضا :

ــ سمعت اشاعة تدور حول علاقتك بمس وبى ، انها فعلا جميلة • أليس كذلك ؟• لطالما رددت الاشاعات فى مدينة ويشاع عنى مثل ما يشاع عن الشباب • ولكن لا عليك ــ ان الاشاعات سرعان ما تموت وتتبخر •

وكنت أريد أن أقول له « اننى مدله فى حب مس وبى » ، حتى لا يكون فى الأمر ما يخفى عليه ، ولكننى قرأت فى عينيه أنه يقول لى ، أعرف كل شيء وفر على نفسك ما تريد الافضاء به • وشعرت بأننى فى حضرة هذا الرجل ، أحس بكل ما فى الانسانية من خير، تماما كما أحس بكل ما فيها من شر فى حضرة فينويك •

- ٣ -

وكانت سابى هى التى عثرت على المنزل الذى يصلح عشا لغرامنا • استأجرته من صاحبه بأثاثه لمدة ستة أشهر • ولم تسمح لى بدخوله الا بعد أن تتم اعداده وتتم تجهيزه •

وأخطرت روزى صاحبة الفندق الذى أقيم به بعـزمى على الانتقال الى سكن خاص بى ، مع احتفاظى شكلا بعنوانى وغرفتى بفندقها • ولما أردت أن أوضح لها الأمر قاطعتنى قائلة :

ـ لا حاجة بك لأن تشرح لى الأسباب أنا أعرف كل شيء • اطمئن ، ولن أتناول منك أجرا مقابل احتفاظك بسكنك عندى •

ـ اذن فلتسمحى لى بدعوتك للعشاء من وقت لآخر •

ـ ستجدنى دائما رهن اشارتك •

وبعد أن فرغت سابى من اعداد كل شيء ، انتقلنا بعد ظهر يوم الى عشنا الجديد • واتجهت بنا الغارى الى تلال مالابار وفق توجيهات سابى للسائق ، لأننى كنت أجهل كل شيء عن المنـزل حتى عنوانه • وتوقفت بنا العربة أخيرا أمام بيت كان كل ما يحيط به يتحدث بجماله وشاعرية موقعه • وخـرج باهادور يستقبلنا ويرحب بنا ولم يكن البيت ليقل جمالا من الداخل عنه من الخارج • وتبينت يد سابى ولمساتها فى كل ركن منه • ولاحظت أنهـا لم تترك شيئا أو تغفل أمرا ، حتى الأزهار بألوانها الزاهية المتنافسة، كانت فى كل مكان منه ، ووجدتها قد أعدت لى زجاجة من الويسكى فى غرفة الجلوس وما ان احتوتنا الغـرفة حتى صبت لى كأسا دعوتها لتشاركنى فيها احتفالا بهذه المناسبة السعيدة ولكنها رفضت

لأنها تخشى ان تفقدها الخمر شعورها الحق بما هى فيه من سعادة طاغية •

وفضلنا أن نتناول طعام العشاء فى شرفة المنزل • وأخذت بروعة المنظر الذى وقعت عليه عيناى • لقد رأيت بومباى تمتد على مدى النظر بأنوارها المتلألئة التى تنعكس على صفحة البحر الذى يحف بشاطئها . وكان الطقس لطيفا والنسيم بليلا يحمل معه رائحة الزهور • ومن فوقنا السماء نزهو بنجومها صافية لامعة • وقد اجتمع كل هذا وذاك ، ليبغلنى الى عالم من الجمال والخيال يتفق وما تعتمل به نفسى من مشاعر ، ارتفعت بى الى أعلى مراتب السعادة والهناء • وتركتنى سابى لتأملاتى ، لأنها كانت تدرك كل ما يجيش به صدرى • تركتنى أنعم بكل هذا الجمال فلم تتحدث بشىء عنه أو تنطق بكلمة واحدة • ان مجرد الكلام ومحاولة التحدث عن هذا الجمال كان يفسد صورته كما أفسد أنا صورته هنا بمحاولتى نقل شعورى واحساسى سطورا فوق هذا الورق • انه أجل من أن يوصف وأسمى من أن يصور •

وخيل الى أن تلك الشرفة ، بهذه المائدة ، بسابى التى تفيض عيناها سعادة وتشع سرورا ، وبهذا الاطار من الجمال الذى يحيط بنا ، ما هى الا صورة من صور النعيم الذى يحلم به الانسان ويمنى النفس بسكناه ، بعد حلول الأجل •

الفصل السابع

- ١ -

وردت برقية من اللورد دورويستون ، بعد أن انتقلنا الى المنزل بأسبوع وهى كالآتى :

« سأحضر قريبا ، اننى جد متلهف على رؤياك » •

وعلقت سابى عليها قائلة :

ـ سيكون كل شيء على ما يرام ، انه رجل عظيم ، وما أظن الا انه سيعجب بك ٠

ـ ألا يحسن بى أن أعود الى غرفتى بالفندق ؟٠

ـ كلا لا حاجة بك لذلك ٠

وكانت قد دعت مستر سكايف للعشاء ٠ وتظاهرت بأننى مدعو مثله ، وحرصنا فى وجوده أن نخفى أمر علاقتنا ، وأن تسود الكلفة بيننا ، حتى لا يشك فى شىء ٠

وبعد أن فرغنا من تناول طعام العشاء وتدخين بعض لفافات من التبغ ، بدأت أضيق ذرعا بهذه السهرة التى كانت متكلفة غير طبيعية ، فقلت بعد أن راجعت ساعتى :

ـ يحسن بى أن أنصرف ، لأن الوقت بات متأخرا ٠

ولكن مستر سكايف لم يحرك ساكنا ، ولم نصب حركتى المرمى ٠ فحولت مجرى الحديث لأجد مبررا للعدول عن عزمى ٠. ثم عدت وكررت المحاولة بعد ذلك ، ولكن مستر سكايف طلب كأسا أخرى من الويسكى ٠ وظل ينتقل من حديث الى حديث ، وكلما مرت الدقائق كنا نضيق ذرعا به وبأحاديثه الفلسفية ،حتى نهض أخيرا مودعا سابى ، وخرجت معه الى المشى ، ومنه الى الطرقات المؤدية الى منعطف السوق ، وكان لا ينقطع عن الحديث طوال مسيرنا ٠ وأخيرا توقفت عن السير لأودعه قائلا .

ـ من هنا يبدأ طريقى ٠ هل ستقطع المسافة مشيا الى تل مالابار ؟٠

ـ أجل ٠

قالها فى نبرة غامضة بدت لى غير طبيعية ، وتركته الى السوق حيث قضيت حوالى ربع ساعة اتجول فى طرقاته بين حوانيته ومقاهيه ، ثم قفلت راجعا الى المنزل . وما ان اقتربت من بابه حتى أبصرت بشخص يقف بجواره ٠ ثم تبينت عن قرب أنه سكايف ، وكنت قد اقتربت منه حتى لم يعد هناك مجال لأن أتراجع ٠ فواصلت سيرى حتى أصبحنا وجها لوجه وقلت له :

ـ لماذا تقف هنا ؟

فابتسم محدقا النظر فى وجهى ولم يجب الا بعد أن أعـدت السؤال كلمة كلمة ، فقال لى :

ـ أردت أن أتحقق بنفسى .

ـ والآن هل تحققت ؟

ـ كان يجب على الا أسمح بشىء من ذلك .

ووقفنا يحملق كل منا فى وجه الآخر ، الى أن قلت له أخيرا :

ـ يحسن بك أن تعود الى منزلك .

ـ هكذا اهذا ما كنت تفعله أنت ؟

ـ ان بيتك الجميل اولى بك .

ولم يعقب بشىء . ولم يتحرك من مـكانه . ولم يخفض من بصره . وأخيرا لم أجد مفرا من أن احييه تحية المساء . ولمـا لم يرد تحيتى ، تركته ودخلت الى المنزل لأجد سابى فى انتظارى وقد غالب عينيه النعاس .

ـ ٢ ـ

بمجرد أن وصل لورد دورويستون الى الهند ، ونزل بفندق التاج تـصـل بسابى ودعاها لتناول طعام الغداء . وبعـد عودتها قالت لى :

ـ انه يريد أن يقابلك . ياله من رجل لطيف المعشر واسع الأفق ، لقد طلب منى أن ارجوك نيابة عنه أن تقبل دعوته لتناول طعام العشاء غدا .

ـ هل علم بامر علاقتنا ؟

ـ لقد تحدثت عنك بكل خير .

ـ أرجو أن يقنعك بقبول الزواج منى .

ـ لماذا تعود لتلح فى هــذا الأمر ؟ قد يكون فى زواجى منك مبعث شقائك .

ـ بل انه سيضع الأمور فى نصابها ، تلك هى سنة البشر .

ـ لكم وددت أن تفهمنى على حقيقتى . اننى لا اريد أن اكون مصدرا لتعاستك وغضب والديك ، لزواجك من يابانية وهى من جنس آخر .

ـ ألهذا لا تريدين أن تتزوجى منى ؟ .

ـ انه أحد الأسباب ؟ .

ـ وهل هناك من أسباب أخرى ؟ .

ـ ميشيل . لقد سبق أن صارحتك برأيى . انك لاتفتأ تلح على بهذا من وقت لآخر فتعكر صفو سعادتنا .

ـ بل انك أنت التى تعكرين صفو سعادتنا بعنادك واصرارك . انك تعقدين الأمور وتزيدينها صعوبة .

ـ لو كنت تحبنى مثل ما أحبك لما قلت شيئا من هذا .

ـ بل اننى أحبك ولا أطيق التفكير فى البعد عنك .

رأيت اللورد دورويستون قبل أن يحل موعد الغد .. رأيته مع سكايف بفندق التاج يصغى الى حديثه باهتمام . وما أن وقع نظرى عليهما وهما فى جلستهما بحانة الفندق ، حتى أدركت لتوى انهما كانا يتحدثان عنى . ولما ألقيت بالتحية الى سكايف ، تبعنى بنظراته حتى اتخذت مجلسا لى فى ركن هـادىء . ولاحظت أن اللورد دورويستون اختلس نظرة الى ناحيتى . وعجبت من أمر هؤلاء الناس الذين لا يتركون غيرهم من الخلق ، دون أن يتدخلوا فى شئونهم الخاصة ـ من أمثال سكايف وفينويك ـ هؤلاء الذين يتدخلون فيما لا يعنيهم . ومهما يكن من أمر ما يفعلون ، فانهم لن يستطيعوا أن يفرقوا بينى وبين سابى ، التى اصبحت جـزءا من حياتى بعد أن تغلغل حبها فى قلبى ، سـابى التى أعادت لنفسى الثقة بها ، وملأت على فراغ حياتى .

ولكننى لم أر أثرا لمـا تصورته عند لقائنا باللورد دورويستون على مائدة العشـــاء فى اليـوم التـــالى ، كما لاحظت شـــدة اهتمـامه بسابى وحدبه عليها حدب الأب الشـفوق العطـوف .

وشعرت بميل الى الرجل واعجبت به ، وكان يعاملني برقة وادب وتقدير ظاهر رفع من روحى المعنوية . كان رجلا كاملا بكل معنى الكلمة ، كيسا حاضر البديهة قوى الشخصية .

وانتهز فرصة خلوته بى ، عندما ذهبت سابى لشأن من شئونها فقال لى دون مقدمات :

ــ انك مغرم بها . أليس كذلك ؟.

ــ أجــل ..

ــ هل يسعدها حبك ؟ .

ــ ألم تلمس ذلك بنفسك ؟ .

ــ أجل شعرت بهذا فعلا . أرجو أن تتناول طعام العشاء معى غدا على انفراد .

ولمــا أحطت سابى علما بكل ما جرى بينى وبينه من حديث سعدت بذلك ورأت فيه دليلا على تفاهمنا ، ولم تمانع فى اجابتى لدعوته .

وكانت لحظات ممتعة حقــا ، تلك التى قضيتها مع اللورد دورويستون .. ودار الحديث بيننا شيقا طويلا . وكنا نجلس فى الشرفة التى تطل على الميناء . وكانت سابى هى محور حديثنا . وطبت نفسا لأننى وجدت الرجل الذى يفهمنى وأفهمه . وشعرت بأن سعادة الانسان لا تكتمل الا بصداقة حقة يطمئن اليها ويرتاح لها ، ان القلوب المتحابة المتآلفة المجتمعة على الود الصافى ، هى دعامة من دعائم السعادة حقا ، وتلك النفوس الراضية المطمئنة ، التى لا تنطوى الا على حب الخير للناس ، ولا تكتوى بنار الحقــد والغيرة ، فى عالم عم فيه الفســاد واستشرت عوامل الشر ، هى بمثابة حبات من اللؤلؤ نادرة الوجود صعبة المنال .

ثم تطرق بنا الحديث الى المستقبل عندما قلت له :

ــ كنت أنتظر الفرصة المناسبة لأعلن عن رغبتى فى الزواج من هاناكو .

ـ كنت أعرف انك ستسألنى ذلك .

ـ الا توافق على عرضى ؟ .

ـ ليس الموضوع موضوع موافقتى من عدمه . ان مرد ذلك اليها . وهى لا ترغب فى اتمام هذا الزواج حرصا على سعادتك وقد تكون على حق فى قرارها هذا .

ـ ان الأمر جدير بكل مخاطرة .

ـ لعل مقتضيات الشهامة هى التى حدت بك لابداء هذا العزم .

ـ كلا . بل هى رغبتى الدفينة .

ـ لو كنت مكانك لتريثت قليلا . لعل فى ذلك الخير كل الخير لك .. ولها . انتظر ما ستكشف عنه الأيام ، فقد يستجد من الأمور ما ليس فى الحسبان .

ـ كنت أطمع فى أن تكون فى صفى .

ـ ومن قال لك غير ذلك ؟ أنا معك قلبا وقالبا . وارجوك الا تنسى هذا أبدا . اننى فى صفك . بل وأرجو ان تضع كل ثقتك فى ، حتى استطيع أن أركن اليك .

ـ يمكنك أن تطمئن الى ذلك .

ـ انك تعلم بأمر وصايتى على هاناكو ؟ ولطالما تساءلت عما اذا كنت قد احسنت صنعا بموافقتى على سفرها الى الهند من عدمه ، الا أن الأمر لم يكن لينتظر موافقتى ، لقد قررت وصممت وهى من هذا الطراز الذى لا يمكن بحال ما أن يثنيه شىء عن عزمه اذا ما قرر وصمم . لقد وافقت لأنه لم يكن هناك مفر من ذلك . وكان معنى هذا أن تعبر المحيطات والقارات وحيدة ، وأن تعيش كيابانية بين قوم يكرهون اليابانيين ويمقتونهم . وكنت أنا الذى اقترحت عليها أن تتسمى باسم صينى ، وقد رفضت فى أول الأمر الاخذ باقتراحى لانها كانت راغبة عن التظاهر بغير حقيقتها . وتشبثت برايى كشرط أساسى لرحيلها والآن وجدت أنها لم تعد وحيدة بفضلك وسأسافر مطمئنا الى رعايتك لها .

ـ وماذا عن مستر سكايف ؟ .

ـ ان مستر مكايف لم يعد صالحا لهذه المأمورية . فقد لمست انه تغير فى نواح كثيرة من تفكيره .

ـ ولكننى لا أعرف مصيرى بعد الشهرين الباقيين من المدة المحددة لتدريبى بالفرقة الدراسية .

ـ لنترك الظروف التى ليس لنا سلطان عليها لحينها . ولنحدد اتفاقنا فيما نحن بصدده . ان كل ما أطلبه منك أن تبذل أقصى ما فى وسعك لرعايتها والسهر عليها .

ـ انه لأمر يتفق مع شعورى فعلا . وثق انك لا تطلب منى ما يشق على نفسى .

ـ من يدرى ؟ . ربما صادفتك ظروف عسيرة شاقة .

ـ ان حبى لها كفيل بتذليل كل الصعاب .

ـ أجل . أعرف انك تحبها . ولذلك ترانى واثقا من اننى اعهد بها الى يد حانية رحيمة .

الفصل الثامن

ـ ١ ـ

طلب البريجادير من المدرسين ان يرفعوا اليه تقاريرهم عن حالة كل طالب على حدة وكان ذلك فى أواخر شهر اكتوبر .. وسألتنى سابى أن أساعدها فى ذلك . وجلسنا فى الشرفة نعد التقارير المطلوبة منها وكانت قد انفردت بكتابة التقرير الخاص بى فلما راجعته وجدت انها أطنبت فى تقديرى ، اللهم الا فيما يختص بطريقة نطقى ولهجتها .. فاستفسرت منها عما اذا كانت ستقدم هذا التقرير عنى كما هو ، فأكدت لى بأنها لن تغير منه شيئا ، بل وانها ستضيف اليه اننى أحسن طلبة فصلها الدراسى ، وكانت

معظم التقارير من درجة «جيد» و «جيد جدا » أما تقرير فينويك فكان «دون المتوسط» وقد قالت لى تعليقا على ذلك :

ــ انه يدعى .. ومن يدعى العلم فلن يناله أبدا .

وقدمت التقارير من جميع المدرسين . وعقـــد لنا اختبار شفوى من لجنـــة مؤلفة من البريجادير واثنين من الضباط حضرا من دلهى . واستمر الامتحان بضعة ايام ، كنا ننتقل فيها من حجرة الى حجرة . وبين مدرس الى آخر ، وأعلنت النتيجة وكان ترتيبى الثانى . واحتفلن بعد ذلك باعلان النتيجة ؛ ولم يتخلف عن الحفل أحد من الطلبة ؛ حتى ميرفين كان قد استطاع أخيرا أن يقنع الأطباء المعالجين باطلاق سراحه والموافقة على ســـفره الى انجلترا .. واشتركت سابى فى الحفل مع جميع زملائها من المدرسين ، بما فى ذلك البريجادير نفسه .

وشربنا نخب الملك . ثم نخب البريجادير بنـــاء على اقتراح فينويك . ثم وقف البريجادير بيننا خطيبـــا ، وتوجـه بتحيته للأساتذة والطلبة ، وقدر لسابى تعاونها وتحملها مشاق الســـفر من انجلترا الى الهند ، وهى اليابانية ، الأمر الذى ضـــاعف مما قامت به وأظهر حقيقة مايتصف به شعبها الذى اضطررنا لدخول الحرب ضده .

ثم تحول الحفل من الجد الى ناحيتـــه المرحـــة ، ونهض بيتر ليعلن خطبة دوركاس الى ماريو ، وقام آخر ليعلن خطبـــة لامب وساندرا . وضج الحاضرون بالتصفيق والهتاف لمن أسعدهم الحظ بهذا الرباط الوثيق . وكان ميرفين مرحا ، سعيدا بقرب عودته الى الوطن ، وكان كل حديثه عن بلدته تشيلى ، وعن أنه سيذكرنا فى لياليه الحمراء ، بين الحانات والنوادى الليليـــــة . ورثى لحالنا وتساءل عن المكان الذى سنكون به فى هذا الوقت . فقلت له :

ــ وراء الخطوط فى بورما .

ــ هذا ما أتوقعه لــكم .

ــ ولهذا أودعوك مستشفى المجاذيب .

ـ وأنت ستعود الى بورما حيث تقتل هذه المرة . لقد نجوت من قبل ، ولـكنك لن تنجو هذه المرة .

ـ هراء . ان رجال المخابرات الحربيـة مكانهم خلف خطوط القتال .

ـ ان الأدغال لا تعرف خطوطا للقتال . فهناك الملاريا وغيرها من الأمراض ووابل الرصاص من حيث لا تدرون .

ـ ان انتصار بلادنا وكسبها للحرب يساوى كل هذا العناء .

ـ مرحى . مرحى . بالبطل الصنديد . لقـد أديت واجبى ثلاثة أعوام طوال . وقد آن لى أن أستريح ..

وعندما وافت الساعةالحاديةعشرة ، انصرفنا ـ سابى وأنا ـ لنستقل احدى عربات الفارى الى منزلنا .. وكان الطقس بديعا لطيفا والسماء صافية تزهو بنجومها ، والحيـاة من حولنا باسمة تجود علينا بأحلى ساعات العمر .

وأوينا الى عشنـا الجميل الهـادىء ، وجلسنا فى الشرفة نستكمل تمتعنا بهذه الأمسية الجميلة ، وننعم بمنظر بومباى تحت أقدامنا تتلألأ بأنوارها المنعكسة على سطح مياه المحيط .

وسمعتها تسأل لى ، وهى تستند برأسها على كتفى :

ـ ميشيل . لا أريد ان أعود للتدريس بعد رحيلك .

ـ وماذا تنوين أن تفعلى ؟.

ـ لعلك لم تعلم بأمر الرسالة التى وردت لى من اذاعة دلهى صباح اليوم .

ـ كلا .. وما هو فحواها ؟ .

ـ يعرضون بها على عملا فى الاذاعـة . وهو ان اقوم بقراءة نشرة الأخبار باليابانية .

ـ اذا كنت ترغبين فى ذلك فلا بأس .

ـ اننى لن استطيع أن أعيش فى بومباى بعد رحيلك عنها .
ـ كما اننى لن أكون فى دلهى .

ـ ولكننا كنا معا فى بومباى وكل ركن فيها سيحدثنى عنك وعن أيامنا معا . اما فى دلهى فالأمر يختلف .

ـ اذن فسترحلين عن بومباى ، وستتركين هذا البيت ؟.
ـ أجل . وستأتى لترانى فى دلهى .
ـ وهل فى ذلك من شك ؟.
ـ أحقا ما تقول ؟ .
ـ بكل تأكيد . ما الذى يدور بخلدك ؟.

ـ يدور بخلدى انك قد تنسى سابى . تنساها وتشكر الظروف التى باعدت بينك وبينها .

ـ أوحقا تظنين ذلك ؟ .

ـ لست أدرى .. خبرنى يا ميشيل ترى الى متى ستظل مقيما على حبك لى ؟ هل تظن ان ستة أشهر اخرى ستكون فترة طويلة ؟ أرجو ان تصارحنى بذلك .

ـ ما هذا الذى تقولين ؟ اننى حتى لو أردت الانفصال عنك فلن أستطيعه .. لقد اصبحت جزءا متمما لحياتى .

ـ شكرا . شكرا . لكم يطيب لى أن أسمع منك ذلك .. لئن كنت جزءا متمما لحياتك ، فانك بالنسبة لى الحياة كلها .. ولئن كنت قد قلت ما قلته لك ، فقد أردت به أن يضمن لى هذه الحياة طالت أو قصرت ، وان أسمعك تصارحنى به فأنتشى وأسعد .

واضطجعت فى مقعدها وأغمضت عينيها ، واستسلمت لتراخى الكسل .. وأطلقت لوجدانها العنان لتسبح فى أجواء من السعادة والرضا ، وتعلو على سحب من الهناء والدعة ، حتى خلتها فى النهاية قد استسلمت لنوم عميق .

وسمعت من بعد صوت الطبول ، يسرى مع سكون الليل قويا متواصلا ، يرن صداه ،فى الغرفة بنغمه البدائى الرتيب ، فيبعث فى النفس الانقباض ، ويدوى بترجيعه الموحش الحزين وأدركت أن سابى كانت على حق عندما قالت لى انها تفزع من هذه الطبول لما تشيعه فى نفسها من رهبة الموت ، ومن شعور بانقضاء الحياة ونهايتها .

ونهضت لأطفىء النور ، وتأملت وجهها الجميل واهدابها التى تظلل عينيها ، فلاحظت حبات من الدمع تنســاب من بين جفونها على وجنتيها ، وتجرى فى تسلسل حتى تنحدر الى جيدها العاجى الجميل . ووقفت فى مكانى أتأمل هذا الجمال النائم الباكى فى هدوء واستسلام وديع .

الكتاب الثالث

الفصل الأول

- ١ -

وحلنا عن بومباى فى شهر ديسمبر . وزودتنا قيادتنا بتذاكر السفر الى كونبور ، دون أن تعطينا أية فكرة عن وجهتنا بعد ذلك . وقضينا الليل بالقطار المتجه شمالا ، ووصلنا كونبور فى الصباح ، ثم قصدنا مطعم المحطــة لنحتسى بعض أقداح من القهوة ، ريثما يتصل فينويك بالجهات المسئولة فى طلب سيارة تقلنا الى حيث لم نكن نعلم .

وقفزنا الى السيارة ، كل بمتاعه ، ثم انطلقت بنا الى الخــلاء وبعد مسيرة نصف ساعة ، توقفت بنا امام اسوار أحدى القلاع ، وهى قلعة من قلاع المغول القديمة الضخمة ، التى كانت تضم بين جدرانها مدينة بأسرها . وكانت جدران القلعة ومبانيها متينة بحيث صمدت لعوامل الزمن طوال هذه القرون على مر الحقب .

عند الأسلاك الشــائكة المعقودة على مدخلها العريض الضخم اعترض طريقنا الحرس المسلح ، ولمحت فى الداخل عن بعد احد اليابانيين الأسرى فى حراسة الجندى المكلف به . وبعد أن سمح لنا بالدخول ، دعينا لمقابلة الميجور الذى قال لنا :

« وأخيرا وصلتم . انكم الآن فى معسكر للمعتقلين من أسرى العدو . ستمكثون بيننا قليلا لتلقى بعض التعليمات ، ثم تنطلقون للقيام بما يعهد به اليكم من اعمال » .

وبعد أن استمع الميجور للكثير من أسئلتنا ، تركنا ننصرف الى « الميس » لتناول طعام الغداء ومنه الى الثكنات المعدة لنا ، وكانت الثكنات قريبة من البناء المودع به الأسرى . حتى خيل الينا اننا لا نفترق عنهم فى وضعنا ، هم فى سجون ونحن فى سجون ! .

واشتركت مع بيتر فى سكن واحد ، وعينا لنا « مراسلة » بدلا من باهادور ـ الذى كنت قد تركته مع سابى ـ وقمت بعد الظهر بجولة لتفقد المعتقل ومررت أول ما مررت بمعسكرات الأسرى وعندما دخلت غرفة السجن الأولى ، نهض الجندى اليابانى الأسير ووقف وقفة انتباه فألقيت اليه بالتحية التى ردها بأحسن منها . ثم سألته :

ـ ما اسمك ؟ .

ـ ياما ناكا .

ـ ورتبتك .

ـ رقيب أول .

ـ اجلس .

فصدع بما أمرته به . وواصلت أسئلتى :

ـ أين تم اعتقالك ؟ .

ـ فى أراكان .

ـ فى أى ظروف كان ذلك ؟ .

ـ كنت قد ضللت الطريق الى وحدتى ونمت بالغابة . فلما استيقظت من نومى ، وجدتنى وجها لوجه مع قواتكم . وحاولت أن انتحر ، ولكنهم لم يمكنونى من ذلك .

ـ ولماذا كنت تزمع الأنتحار ؟.

ـ لأنه من العار أن يقع يابانى فى الأسر .

ـ وهل ستعود الى اليابان بعد انتهاء الحرب ؟.

ـ اذا عدت الى بلادى قضى علىّ بالموت ، أن الأسرى لا يجب ان يعودوا .

ـ وأسرتك ؟.

ـ ستتلقى رماد جثمانى . اننى مقضى على بالهلاك .

ـ ألا تحلم بالعودة الى منزلك ؟.

ـ وماذا تجدى الأحلام ؟.

وتركته لأستعرض الأسير الثانى . ووجدته يقرأ ويدخن ونهض بمجرد أن وقع نظره على وحيانى ، ووجهت اليه نفس الأسئلة وكانت ردوده مطابقة لردود زميله الأول . وهكذا وجدت جميع الأسرى صورا متطابقة لا اختلاف بينها .

وجلست مع بيتر فى احدى الأمسيات ، نستعرض ما ضينا القريب فى بومباى وحاضرنا فى هذه القلعة ومستقبلنا الذى لا نعرف عنه شيئا ، ثم رحنا نتبادل الأمانى ، اذا ما قدر لنا أن ننجو من ويلات هذه الحرب ونعود الى بلادنا لنعيش بين أفراد أسرتينا . وجبنا فى آفاق من أحلام اليقظة عن المستقبل ، وعرجت فى الحديث على ما أرجوه لسابى ولى من حياة زوجية هادئة فى موطن راسى . فقال لى بيتر :

ـ أرى انكما أعددتما للمستقبل عدته ؟ .

ـ هذا من ناحيتى فقط . أما سابى فلا .

ـ كيف تقول هذا ؟ . هل رفضت عرضك ؟ .

ـ أكثر من مرة .

ـ وماذا تراك فاعله ؟ .

ـ لست أدرى انها ترفض الخوض فى أى حديث عن المستقبل . لقد سألتنى وألحت فى الرجاء ألا أفكر فيما هو آت .

- ٢ -

سعدت بلقاء سابى ثلاث مرات خلال شهرى يناير وفبراير . وكانت قد رحلت عن بومباى الى دلهى لتسلم عملها الجديد

بالاذاعة . ولم تكن دلهى لتبعد عن كونبور بأكثر من ثلثمائة ميل تقريبا ، كنت أقطعها فى عشر ساعات بالقطار .

وكانت تعيش فى فندق بحى دلهى القديمة . أما عملها فكان فى نيودلهى . وكانت راضية عن عملها سعيدة به . وعندما كنت أسافر لزيارتها . كنت أجلس لأستمع الى صوتها وهى تذيع الأخبار باليابانية . ولم يتبين لى منها أنها تدرك خطورة ما تقوم به من عمل ، وبالذات بعد ما تنتهى الحرب . ولما حدثتها فى ذلك قالت لى :

ـ لم يعد يعنينى من هذه الحياة الا قربك منى وحبك لى .

فقلت لها مطمئنا :

ـ سأعود اليك بعد بضعة اسابيع

ـ ان الأيام تمر ثقيلة طويلة . وهذه الأسابيع القليلة ستكون عندى قرونا لطالما حاولت أن أحصر تلك الشهور التى عشناها معا . انها لم تكن شهورا ولا أياما ، ان هى الا لحظات من العمر مرت سريعة خاطفة ، ليس فيها من معيار الزمن أية صفة أو توقيت

ورفعت عيناها الى لتعبر بهما عما يختلج فى نفسها فقلت لها :

ـ دعينا من ذلك فاليوم لنا .. أليس هذا هو رأيك ؟ .

وقمت أضمها بين ذراعى وأقبلها . وطمأنتها اننى لن أذهب الى الجبهة قبل شهر مايو . وهكذا سنظل ننعم بساعات لقائنا الخاطفة .

وحدث بعد ذلك ما لم يكن فى الحسبان ، أو كما يقولون : تقدرون فتضحك الأقدار . اذ صدرت الأوامر الى بالسفر الى امبال فى أول مارس ، فى مأمورية تستغرق حتى شهر سبتمبر ، ولم أستطع ان أتوجه لزيارة سابى قبل رحيلى لضيق الوقت . كما لم أستطع الاتصال بها تليفونيا . وكنت فى حيرة من أمرى ، وفى حالة لا أحسد عليها ، وأشار على بيتر بارسال برقية لها لتقابلنى فى

أجرا .. وقام عنى بتنفيذ ذلك لأننى كنت مشغولا بالاستعداد للسفر .

وتحرك بى القطار فى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر ، ووصل الى محطة أجرا فى السابعة . وقصدت من فورى الى فندق سيسل وحجزت غرفة به . ثم جلست أقطع الوقت فى الشراب حتى تحل الساعة الثامنة والنصف موعد وصول قطار دلهى الى المحطة .

وكنت بالمحطة قبل الموعد المحدد بربع ساعة . وأقبل القطار أخيرا يتهادى . ثم بدأ المسافرون يتركونه . ورحت أبحث بينهم عن سابى . وكدت أيأس من حضورها ، حتى أبصرت بها واقفة بباب احدى العربات تلوح لى بيدها مبتسمة سعيدة فرحة .

وعدنا الى الفندق فى احدى عربات التونجا ، وكنت سعيدا بهذا اللقاء الذى دبره لنا القدر ، بعد ما كنت يائسا من تحقيقه ، لقد هيأ القدر لقاءنا . وهيأ معه الهام بيتر بارسال هذه البرقية التى مهدت لهذا اللقاء فى أجرا ، وعند ما تريد الأقدار أمرا ، تدبر له حتى تبلغ ما تريده ، فقد جعلت السماء ، لكل شىء قدرا .

واقترحت عليها أن نتوجه بعد العشاء لمشاهدة مقبرة تاج محل فى ضوء القمر . فاستفسرت منى عن هذا الأثر وماذا عساه أن يكون ، وشرحت لها حقيقة أمره وسبب اقامته ، « انه تسجيل لقصة حب خالد لا يموت » .

وأمام هذا الأثر الخالد ، وقفنا مأخوذين بروعته ، روعة المرمر الأبيض اللامع ، ينعكس عليه ضوء القمر فيبدو كالثلج المصقول بهاء ، روعة الفن الدقيق يعلو بمآذنه ودرجاته ، فيكاد يبلغ بك الى أجواز الفضاء حلما وخيالا .. قالت لى :

ـ أبقعة من الأرض هذه ، ام قطعة من السماء ؟ . هل نحن فى حلم ، معا . نرى ونتمتع بكل هذا الجمال ، أم هى الحقيقة جعل منها ضوء القمر خيالا ؟ . لكم أود أن أموت الآن ! .

ـ سابى .. ماذا تقولين ؟ . ان هى الا البداية .

ـ كلا .. انها النهاية .. اننى لا اخشى الموت يا حبيبى ، لا أخشاه بعد أن شربت كأس السعادة من يدك .

ـ لا يجب أن تتحدثى كذلك مرة أخرى .

ولكنها الحقيقة سواء تحدثت بها أم لم أتحدث بها .

ـ ولكننا ما كدنا نبدأ حياتنا معا .

ـ كلا .. انها بداية النهاية .. ألست ذاهبا الى ميدان القتال ؟ .

ـ ان عملى لن يكون فى الجبهة .

ـ مهما يكن من أمر طبيعة عملك .. فأنت راحل بعيدا عنى .

ـ اننى عائد بعد ستة أشهر ، وسنستأنف حياتنا معا .

ـ تماما يا عزيزى .. تماما .

ـ انك لا تقولينها بلهجة الواثق المقتنع .

ـ تأمل معى القمر بابتسامته الساخرة .

ـ اننى أراه فى دمعك الجارى .

ـ انه يسخر منا نحن البشر .. يسخر منا لأننا ننسى انفسنا ونطمئن اطمئنان الخالدين .

ـ اننى ألمح بوادر الحزن الذى تفيض به نفسك فى هذه الدموع .

ـ لن ترى منى ذلك مرة أخرى .

وستقلعين عن افكارك القاتمة هذه ، وتفكرين معى فى عطلتنا القادمة ، التى سنقضيها معا فى جالى تال ؟ .

ـ أعدك بهذا .

وانصرفنا لنبحث عن عربة التونجا لتعود بنا الى الفندق .

الفصل الثانى

- ١ -

جلست سابى الى منضدة زينتها أمام المرآة ، وجلست اقرأ فى كتاب ، ولاحظت من طرف خفى ، انها ترتكز بمرفقيها على المنضدة وقد اكتسى وجهها بخلجات من الألم الشديد . وما أن رأت فى المرآة اننى أتأملها ، حتى جاهدت لتستعيد حالتها الطبيعية ، ثم راحت تستكمل زينتها ، فلم أجد بدا من سؤالها :

ـ ماذا بك ؟ .

ـ لا شيء .. صداع خفيف .

ـ عليك بقرص من الاسبرين .

ـ الى بواحد أو باثنين .

ونهضت ، واتيتها بقرصين وكوب من الماء . فابتسمت معتذرة وهى تقول :

ـ اننى جد آسفة يا ميشيل . ما كنت أود أن أضايقك بآلامى .

وفى طريقى الى مقعدى ، رأيتها فى المرآة وقد تناولت خلسة بعض أقراص اخرى لم أتبين عددها . فعدت اليها وامسكت بالزجاجة ، فوجدت انه لم يبق بها الا قرص واحد ، مع اننى كنت قد تركتها أمامها وبها خمسة أقراص .. فلما سألتها عن ذلك حاولت أن تراوغ فى الاجابة أول الأمر ، ثم اضطرت أمام الحاحى أن تعترف بأنها ابتلعت الأقراص الأربعة ، وعللت ذلك برغبتها فى القضاء على آلامها فى أقصر وقت ممكن حتى لا تفسد سهرتنا التى لم يبق منها الا ساعات قليلة .

فقلت لها :

ـ سته اقراص ؟ ! . هذا كثير .
ـ لا تخف .. ليست هذه أول مرة .

ولكننى لاحظت بالرغم من كل هذه المحاولات أنها تغالب آلامها ، وأنها تحاول أن تصرفنى عن الالحاح فى الاستفسار منها عن مصدر هذا الصداع ، الذى يعاودها من حين لآخر . ووضعت حدا لذلك بأن نهضت وطوقت عنقى بذراعيها وأسكتتنى بقبلة طويلة .

كان الموعد المحدد لقيام القطار الذى سيقلنى الى امبال ، قبل الموعد المحدد لقيام قطارها الى دلهى . فصحبتنى الى المحطة ، ووقفت تتحدث الى حديثا عاديا لتملأ به فراغ تلك الدقائق الثقيلة الوطأة على نفسينا . وابتاعت لى نموذجا مصغرا للتاج ، وعدتها أن أحتفظ به ، حتى أودعه منزلنا بعد أول لقاء لنا عقب هذا الفراق الذى سيطول أمده ستة أشهر فى حساب الزمن ، وستة قرون فى حسابنا . وأخيرا تحرك القطار ليأخذنى بعيدا عنها ، ووقفت على رصيف المحطة تلوح لى بيدها ، وظللت أتابعها بعينى حتى لم أعد أرى من طيفها شيئا .

ـ ٢ ـ

كان زميلى بالقطار يدعى الكابتنماننج . وكان من قوات المشاة المسافرة الى جبهة القتال فى امبال . وتوطدت العلاقة بينى وبينه كما يحدث دائما بين المسافرين فى مقصورة واحدة .

وكان علينا أن نترك القطار فى دومبرى لنستقل باخرة تنقلنا الى براهما بوترا . ووقفت مع زميلى فى الرحلة نحتسى الويسكى ونتأمل مياة النهر المحملة بالفرين ونتطلع الى القمر وهو يتخذ طريقه فوق الأفق باهتا مصفر الوجه .

ولعبت الخمر برءوسنا ، وبدأنا نكتشف عما فى قلبينا ، فأخبرته بما بينى وبين سابى ، واخبرنى بما كان بينه وبين خطيبته

الانجليزية التى فسخ خطوبته لها بسبب سوء حالتـه المالية فى عام ١٩٣٤ .

وتحدثنا كثيرا . وراح كل منا يزيح عن صدره ما كان يثقل عليه من مشاعر وذكريات . وصـفا الجو بنسيمه العليل ، وعلا القمر بضوئه الفضى البديع . وخلوت الى نفسى وأنا أتطلع الى مياه النهر المتلاطمة على جدار الباخرة . وتواردت على خاطرى شتى الصور والذكريات ، ورأيتنى أستعيد لنفسى جلستى فى حضرة لا لافيكرانا . ثم انتقل فجأة الى مستر هيدلى وروزى ، ومنه الى لورد دورويستون والبريجـادير ومنه الى بيتر وماريو ، ثم الى الكابتن مانئج ، هذا الذى يقف الى جانبى ، ووددت لو اجتمع كل هؤلاء على ظهر الباخرة معى . أنهم عالمى الجديد .

وهبطت بعد قليل من حالق خيالى الى عالم الواقع . الواقع الذى ينقلنى الآن فوق سطح هذا النهر الى براهما بوترائم الى امبال . الى هذا المصير المجهول ، والى ماقدر لى فى سجل الغيب.

وقضيت الليل فوق سطح الباخرة ، حيث استسلمت للنوم فى فراشى الذى أتيت به من مقصورتى . وقضينا نهار اليـــوم التالى نمخر عباب النهر ، بين أقداح القهوة وشطائر اللحم .

وتركنا الباخرة أخيرا فى مساء اليوم نفسه الى قطار نقلنا الى ديمابور ، حيث انتظرنا احدى السيارات التى نستقلها الى امبال الى هذا السهل الضيق الواقع بين الهند وبورما .

وتخلفنا فى هذه المدينة يومين ، وعلمنا ان اليابانيين كانوا على مسافة مائة ميل أو تزيد على طريق تيديم من امبال . وتلقيت رسالتين فى اليوم التالى . احداهما من سابى ، تفيض رقة وحبا وتزخر بذكريات سعادتنا والايام الجميلـة التى قضيناها معا ، وتدعونى فيها للتجمل بالصبر والرجاء . وكان قد خيل الى انها الى جوارى تهمس بهذه الكلمات فى أذنى .. أما الرسالة الثانية فقد حولت الى من بومباى ومنها الى كونبور ثم الى مقرى الحالى وكانت من مرجريت وجنيفر :

العم العزيز ميشيل ، ترددنا كثيرا قبل الكتابة اليك . وكان سبب ترددنا هذا هو والدتنا التى كان من رايها « ان ليس هناك ما يدعو الى ازعاجك بما سنفضى به اليك . غير أننا عقدنا العزم اخيرا حرصا منا على صحة العزيزة سابى ، التى قد تضطرك الظروف للبعد عنها ، والتى لن تخبرك بحقيقة مرضها ، لأنها هى الأخرى لا تريد ان تكون مبعثا لقلقك ، على أنك يجب أن تعرف الحقيقة دون مواربة ، حتى تستطيع أن تكون عونا لها . وحتى لا تفاجأ بالحقيقة المؤلمة فى يوم ما . ونستحلفك بكل عزيز لديك الا تخبر سابى بأننا كتبنا لك ، كما أننا لم نخبر والدتنا بهذا .

لقد راينا انه بحسن احاطتك علما بالأمر حتى تتخذ له عدته اننا نعرف أنك رجل . كما يجب أن تعرف أننا نحلك وسابى من نفسينا فى أعز مكان .

مرجريت وجنيفر

وشعرت بالحياة تكاد أن تتسرب من أوصالى ، وخارت قواى حتى أننى كنت أنقل قدمى ثقيلة بكل عناء . وعلى فراشى بالمعسكر القيت بنفسى لا أكاد أن أعى مما حولى شيئا . وسمعت ماننج يقول لى :

ـ ماذا بك بحق السماء ؟.

ـ حتى الكلمات لم يقدر لسانى أن ينطق بها ،.

ـ هل ستدعى لك طبيبا ؟.

ـ كلا . لست بحاجة الى طبيب .

ولما بصر بالرسالتين فى يدى ، سألنى :

ـ أخبار سيئة ؟.

ـ سيئة جدا .

اذن فقد كنت أنا آخر من يعلم . أنا من كان يجب أن يعلم قبل غيره . كيف اغتفر لنفسى هذا ؟ لقد أعمتنى سعادتى عن كل ما عداها ، فلم يكن يعنينى الا هناء تلك الساعات التى نقضيها معا وحجبت عنى برقتها وجمالها كل شىء آخر . ما أشد غفلتى !! أما كان يجدر بى أن أحاول النفاذ الى أعماق نفسها متجردا عن

انانيتى . لقد ضربت لى باخفائها الأمر عنى أروع مثل للتضحية .
ان الأمر لم يخف على الفتاتين الصغيرتين . لقد اكتشفتا فى شهر
ما لم اكتشفه أنا فى عام طويل .

وبدأت أقلب الأمر على كل وجوهه . واستعيد لنفسى ما كانت تقوله لى أحيانا : « هل نظن أنك تستطيع أن تقيم على حبى ستة أشهر أخرى ؟ » . انها رفضت عرضى المتكرر بالزواج منها . ثم استعرضت حديث اللورد دورويستون الخاص معى . وانتقلت الى حديثها عن الموت عندما كنا نزور تاج محل ، والى تلك الليلة التى ابتلعت فيها ستة أقراص من الاسبرين دفعة واحدة ، وكانت تحاول أن تخفى آلامها عنى . أى آلام تلك التى بعثت فى نفسها هذا اليأس من طول الأجل ؟ . وهأنذا لا حول ولا قوة لى ، تفصلنى عنها آلاف الاميال ، فلا أستطيع أن أكون الى جانبها . سابى العزيزة الصغيرة وحيدة بين قوم غرباء عنها ، والشخص الوحيد الذى كان يجب أن يكون الى جانبها فى طريقه الى حومة الوغى ، لا يستطيع فكاكا من قيوده .

ولما هدأت نفسى قليلا بعد ان أفقت من أثر الصدمة ، واستطعت أن أفكر فى هدوء وروية ، قررت أن أبعث ببرقية الى مارجريت وجنيفر ، أرجوهما فيها ان تكونا على اتصال بسابى للاطمئنان على أحوالها وصحتها . وشعرت براحة نسبية لأننى قمت بأقصى ما أستطيعه . ثم بحثت حتى اهتديت لشخص لديه راديو ، يمكننى به أن أستمع الى صوتها عندما تذيع نشرة الأخبار .

وتوجهت الى المنزل المعين ، وقابلنى صاحبه الميجور كورسلى . بعد أن سألنى عن حاجتى ، دعانى للدخول ، ولكنه لم يستطع أن يخفى دهشته مما سمعه منى . وفى غرفة الجلوس وجدت جهازا الراديو ، الذى قمت من فورى بتثبيت مؤشره عند المحطة التى تذيع منها سابى . وأعلن المذيع باللغة الانجليزية « هنا اذاعة دلهى ، ستستمعون فى الربع ساعة التالى الى نشرة الأخبار باللغة اليابانية » . وتلت ذلك فترة صمت . وأرهفت السمع وسمعت دقات قلبى فى أذنى . ثم انطلق صوت سابى يقرأ نشرة الأخبار باليابانية . اذن هى بخير وليست مريضة .

ومهما حاولت هنا أن اصف شعورى عندما سمعت صوتها ينبعث من الجهاز الذى تلقاه عبر الأثير فنفذ الى أذنى وسرى منها فى كل ذرة من ذرات جسدى ، فأعاد له الحياه ولنفسى الأمل ، فانى لن أستطيع ذلك مهما اوتيت من بلاغة وبيان . ان الاحساس والشعور كتيار الكهرباء غير المنظور لا يمس ولا يرى ، أو كالريح لا قبض لها .

وبعد ان انتهت الفترة المحددة لاذاعتها ، اضطجعت فى مقعدى وكأننى اريد أن أهجع للراحة بعد طول ما عانيت من قلق وعنت . وكان الميجور يراقبنى ، فسألنى أخيرا :

ـ هل تتقن اللغة اليابانية ؟ .

ـ انها عملى الأساسى هنا .

ودعانى لتناول قدح من الشاى . وعرفت منه انه من يوركشير وانه فى مهمة هو الآخر الى امبـال ، وعرض على أن أصحبه فى سيارته . فلما اعتذرت بأن لى زميلا آخر هو مانتج ؛ أجاب بن هناك مكانا له هو الآخر . وودعته شاكرا له ما اتاحه لى وما عرضه على . وعرجت فى طريقى على مكتب التلغراف لأبعث ببرقية الى سابى ، ضمنتها شعورى عند سماعى لصوتها على أمواج الأثير .

الفصل الثالث

- ١ -

كنا أربعة بالسيارة ، بما فى ذلك سائقها . واندفعت مسرعة بنا فى طريق ممهد لتلحق بالسيارات الأخرى التى سبقتنا فى القيام .

وكنت أجلس بجوار السائق ، وجلس كل من الميجور ومانتج فى المقعد الخلفى . وسرد السائق على مسامعى مغامرته فى الملايا ضد اليابانيين ، وكشف عن مقته الشديد لهم . أما الميجور ومانتج فكانا يتجاذبان أطراف الحديث عن ذكرياتهما فى انجلترا .

واستغرق منا بلوغ كوهيما ساعة ونصفا • وكانت تعلو عن سطح البحر بحوالى خمسة آلاف قدم فوق جبال ناجا • وكان الجو لطيفا والطقس جميلا ، بالرغم من أن الساعة كانت قـــد جاوزت العاشرة والنصف صباحا • وملأت صدرى بنفحات النسيم السجسج الذى كان قريب الشبه بنسيم الربيع فى انجلترا •

وكانت كوهيما تعج بالقوات المقاتلة وبكل ما يبعث فى النفس الشعور بأننا فى حالة حرب فعلا • ولاحظت أن الضباط والجنود فى حالة معنوية مرتفعة • وشاهدنا البعض منهم عابس الوجـــه والبعض الآخر يضحك ، وهم جميعا بملابس الميدان المعدة للقتال بين الأحراش والأدغال • وسمعت الميجور يقول ونحن نمر بسيارتنا بين صفوفهم :

ـ من حسن حظ بلادنا أن يكون أبناؤها كذلك ، متحلين بهذه الروح المعنوية العالية

وعندما بلغنا هضبة المرتفع ، اتسع المنظر الجميل أمامنا فأخذنا بروعته وحسن بهائه • فالى اليمين ترتفع الجبال سامحة فى تسلسل الى جهة الجنوب • والى اليسار تتعانق أدغال الهند وبورما مختلطة ممتزجة فى غير فاصل بينها • وسمعت ماتنج يقول مأخوذا بـكل ذلك الجمال :

ـ لو كنت من هؤلاء الناس الذين يعنيهم أين يدفنون • لتمنيت أن أتخذ لى لحدا هنا

وتركنا السيارة التى توقفت بنا أمام « استراحة » المعسكر وجلسنا نرتشف أقداح الشاى ونملى أنظارنا من المنظر الممتد أمامنا ، ونشغل أنفسنا بمتابعة حركة المعسكر بسياراته ومدافعه وفرقه المـــدرعة •

ونهضنا لنستأنف رحلتنا ، فى طريق ضيق على حافة الهاوية ، وانطلق السائق بالسيارة فى طريق ملتو كثير المنعطفات • وأخرجت رسالة سابى من جيبى ورحت أعيد تلاوتها وأستعيد جملها الصريحة البسيطة ، التى جرت على الورق لتعبر عما فى قلبها مباشرة دون

تنميق أوتصنع . وكنت أرى بين السطورطيفها العزيز ، وأستشف من كلماتها روحها الحلوة . ثم أخرجت رسالة مرجريت وجنيفر وأعدت تلاوتها فقرة فقرة محاولا أن أخفف من وقعها عني . وانتهيت من مراجعتي لسطورها الا أنها رسالة طبيعية فاضت بمعانيهامشاعر فتاتين صغيرتين لا يعمر قلبيهما الا الحب والود الصافي . انهما أحسنتا صنعا بما كان منهما بالرغم من معارضة والديهما لهما . وعدت بذاكرتي الى أول ليلة لنا بمنزلنا على مشارف بومباي حين سمعنا دق الطبول التي بعثت في نفسي الانقباض ، وكنت قد غالطت نفسي حتى لا أفسد سعادتي ، وتذكرت كيف كانت سابي تنقبض نفسا لمجرد سماعها .

وقطع على حبل تأملاتي وقوف السيارة عني حين غرة منا جميعا . وتعلقت أبصارنا بالطريق أمامنا لنتبين السبب في هذه الحركة المفاجئة . فرأينا في عرضه جذع شجرة تحيط به بعض الغصون . واستقرت أنظارنا على الشجرة وجال خاطرنا ما يمكن أن نعلل به هذه الظاهرة . ولما شرع السائق في ترك مقعده ليزيلها من الطريق ، أمره الميجور بالتريث . وراح يمعن النظر ، فأدركنا أنه يبحث عن منبت هذه الشجرة ، الذى لم نجد له أثرا . فران علينا صمت مطبق طويل ، كنا نحدق النظر خلاله في الادغال التي تحيط بالطريق وتحف به . ثم أرهفنا السمع لعلنا نسمع صوتا يفسر لنا ما اعترض طريقنا . ولكننا لم نر ولم نسمع ما قد يعيننا على اكتشاف كنه هذه الشجرة التي وضعت في الطريق أمامنا . وأخيرا سمعت الميجور يقول :

ـ لست أجد تعليلا لهذا ، الا باحتمال وقوع حدث ما فيما بعد من مسافة

ووجدنا أن تعليله للحادث هو أقرب ما يكون للعقل والمنطق . وأضاف مانتج قائلا :

ـ أرجح أن اليابانيين قد وضعوا هذه الشجرة في طريقنا لنتوقف . ولعلهم ينتظرون الآن خروجنا من السيارة .

وتزاحمت في خاطري شتى الصور والفكر .. اذن فهذه هي النهاية وها أنا هالك وتارك سابي لمرضها يفتك بها . وها هي والدتي في انجلترا تفض البرقية التي تحمل لها نبأ وفاة ابنها ونعيه، وقطع على تأملاتي وهلعي ، صوت الميجور آمرا :

ـ ليبق كل في مكانه لا يتحرك ، فبعد قليل ستلحق بنا القافلة

ـ وأشعل كل منا لفافة تبغ راح يدخنها في صمت وسكون . وبعد قليل ، سمعنا مانتج يقول :

ـ ألا يجدر بنا يا سيدي الميجور أن نعمل الواجب لانقاذ القافلة كلها من هذا الفخ ؟

ـ تعني أن نقفل راجعين ؟

ـ هذا غير معقول .

ـ اذن فماذا تعني بحق السماء ؟

ـ نتخلص من الشجرة أولا . فاذا لم يجد جديد نتابع سيرنا .
ـ فاذا ما جد هذا الجديد ، ماذا ترانا فاعلين ؟

ـ ليس أمامنا غير سبيل واحد . أن نتخذ من السيارة ساترا ونواصل اطلاق النار حتى نغطي أنفسنا تماما ، ثم نستدير بها لنقابل القافلة .

ـ ولكنني سمعت من الضباط باستراحة المعسكر أن هذه المنطقة نظيفة ولا يوجد بها أحد من الأعداء .

ـ ان الغابة تتسع لجيش بأسره يستطيع أن يختفي بها

ـ فليكن . لنتخلص من الشجرة أولا

فتطوع السائق الهندي للقيام بذلك . وانتظر صدور الأمر اليه . ولكن مانتج تدخل قائلا :

ـ أرجو ان يترك هذا الأمر لي ، لأن السائق لا غنى عنه .

ووافق الميجور على هذا الرأي . وطلب مانتج من السائق أن يدير محرك السيارة ويكون على أهبة الاستعداد . ثم أردف :

ـ اذا ما جد الجد فلا تترددوا فى تنفيذ ما اتفقنا عليه

ثم ترك السيارة ومسدسه فى يده • وتقدم فى خطوات ثابتة منتصب القامة فى غير تردد أو وجل • وتعلقت أبصارنا به فى اشفاق وأمل وتقدير لشجاعته •

وما أن وصل الى مكان الشجرة وانحنى ليشرع فى رفعها ، حتى سمعنا صوت طلق نارى ، ترنح مانتح على أثره تم سقط على الأرض لا حراك به • وأسرع السائق منطلقا الى الخلف بالسيارة ، وانهال الرصاص علينا من مدافع الماكينة وتحطم زجاج السيارة الأمامى ، وأفلتت عجلة القيادة من يد السائق وانجهت السيارة بعجلتيهـــا الخلفيتين الى حافة الهاوية ، وأيقنت أننا فى طريقنا الى القاع •

وفجأة تعلقت العجلتان الأماميتان بالطريق ، وتوقف محرك السيارة . ورأينا حفنة من الجند تحمل السلاح وتندفع فى اتجاهنا وتطبق على السيارة من كل اتجاه • وحاولت أن استعمل مسدسى ، ولكننى أدركت أنه قد فات الأوان •ورأيت ما يقرب من ستة جنود على الأقل شاهرين أسلحتهم البيضاء فى وجوهنا • وبينما كنت فى طريقى الى خارج السيارة ، ضربنى أحدهم بمؤخر بنـــدقيته ، فسقطت فاقد الوعى • ولما استعدت وعيى ، رأيت اليابانيين يدفعون السيارة الى عرض الطريق ، كما رأيت أحدهم قائما على حراســتى موجها الى صدرى فوهة بندقيته حتى لا أحرك ساكنا •

وكان يراس هذه القوة أحد الضبـاط . وما أن انتهى من الاشراف على ســد الطريق بوضع مستعرض للسيارة ، حتى أمر اثنين من الجند بالابتعاد بنا • والى منحدر الطريق وجهنا بأطراف البنادق ، ومنه الى الأدغال • وفى صف واحد سرنا فى طريق ضيق ، يتقدمنا الميجور رافع الرأس ثابت الخطوة ، ومن خلفنا الجنديان الحارسان• وسمعتهما يتحدثان عنا •

ـ لعلهما من الضباط العظام لسفرهما فى سيارة خاصة كهذه

ـ اذن فستنال خير الجزاء •

ـ من الذى أصاب زميلهم الأول ؟ .

ـ كوزانو •
ـ أو كنت ترغب فى أن تنال هذا الشرف ؟
ـ كنت أحب ذلك فعلا ، ولكن ...
ـ قد نضطر لاطلاق الرصاص على هؤلاء اذا حاولوا الهرب
ـ انهم يريدونهم أحياء
ـ بودى لو حصلت على شىء منهم كتذكار
ـ اننى امنى نفسى بعمامة الهندى •

وبعد مسيرة بضع دقائق ، دفع أحدهما بندقيته فى ظهرالهندى ليستحثه على الاسراع بخطواته . فما كان من الهندى الا أن توقف عن السيرواستدار ليواجهه فى كبرياء وعناد • وخشيت أن يستفحل الأمر فقلت للجنديين :

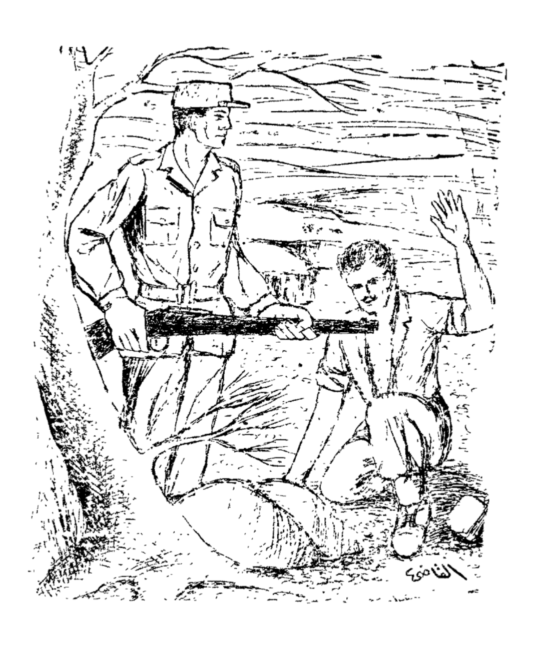
ـ لم يكن بكما حاجة لاستفزازه •

ـ وما أن سمعانى أتكلم اليابانية ، حتى بهتا دهشه وسألنى أحـــدهما :

ـ هل تتكلم اليابانية ؟
ـ قليـــلا •
ـ والآخران ؟
ـ كلا •
ـ اذن سنخبر الهندى بأن يواصل السير •

وكان أن تقدمنى الهندى وسرت أنا فى المؤخرة أمام الجنديين مباشرة ، رغبة منى فى تبادل الحديث معهما •

ـ لقد وقعنا بين أيديكم بفضل براعتكم
ـ لن يسمح بالمرور فى هذا الطريق بعد اليوم
ـ وما هدفكم من ذلك ؟ .
ـ الاستيلاء على امبال
ـ وماذا تراكم فاعلين بنا ؟
ـ سنسلمكم الى القيادة ، وبعدها تنتهى ماموريتنا



وكنا قد قطعنا فى سيرنا حوالى الميل ، عندما وصل الى مسامعنا صوت طلقة مدفع ، أعقبها طلقتان من ناحية مقابلة ، ثم عاد المدفع الأول ليسمعنا صوته • فلما استفسرت من الجنديين قال لى أحدهما:

ـ هذه الطلقات لدك الطريق • من حسن حظكم أنكم ابتعدتم عنه فى الوقت الملائم

واستبد بى القلق خوفا على القافلة التى كانت تتبعنا • فهى صيد ثمين لتلك الطلقات التى تمطر الطريق من ثلاثة مدافع متفرقة الزوايا • ولما أوغلنا فى السير ازددنا اقترابا من مواقع هذه المدافع، ورأينا كيف ينشط القائمون بأمرها فى اطلاقها • وأشفقت على من قدر لهم من قواتنا أن يصطلوا بنارها ويتعرضوا لوابل رصاصها •

وبعد ثلاث دقائق تقريبا ، سمعنا ما يدل على تبادل اطلاق النار من المدفعية المرافقة لقواتنا • وحمى وطيس المعركة واهتزت الأحراش بدوى المدافع ، وملأت رائحة البارود جو المكان • واستمر هذا مدة ربع ساعة دون توقف • ثم توقف اطلاق النار فجأة بعد ذلك وخيم السكون على المنطقة • ووجدتنى أقول للحارسين :

ـ لعله من حسن حظكما أيضا أنكما ابتعدتما عن ميدان المعركة

ـ أمامنا الكثير من ذلك

ـ هل تحب القتال ؟

ـ أحبه أو لا أحبه ، فليس لنا الخيار

وبعد مسيرة ثلاثة أميال تقريبا ، قطعناها فى عدة ساعات ، وصلنا الى المعسكر ، ودخل أحد الحارسين الى كوخ من البوص وتركنا مع زميله • وبعد قليل خرج ليودعنا أحد الأكواخ الأخرى فى حراسة أحد الجنود . ولم يكن بالكوخ قطعة من أثاث . وجلسنا على الأرض وأسندنا ظهورنا الى جدرانه • وكانت الساعة حينئذ لم تتجاوز الخامسة والنصف • ولم أصدق اننا منذ ست ساعات فقط كنا نجلس فى أمان وقد أحاطت بنا قواتنا ، نتناول وجبة خفيفة وفى يدنا أقداح الشاى ومعنا ما نتج يشاركنا طعامنا وشرابنا ويملأ عينيه من المناظر الجميلة التى تشرف عليها الهضبة ، وقد امتلأ حياة وأملا • أين هو الآن ؟ لقد انتقل فى لحظة واحدة من عداد

الأحياء الى عداد الأموات • لحظة واحدة ، ورصاصة واحدة نقلته من عالم ، الى عالم آخر بعيد مجهول • ترى فى أى مكان سيودع الثرى ، أم أنه لن يودع أبدا • أو يمكن أن يحظى بلحد فى هذه الهضبة التى تمنى منذ ساعات أن يحفر لنفسه فيها قبرا . يا لهذا الانسان القوى الجبار . انه لا يملك من أمر نفسه شيئا ! وبالرغم من أن معرفتى به كانت قريبة العهد ، الا اننى شعرت بالاسى لاننى فقدت فيه صديقا بكل معنى الكلمة •

- ٢ -

وكان الميجور منهار الأعصاب بائسا • واعتبر نفسه مسئولا عن كل ماوقع لنا ، بعرضه علينا أن نستقل معه سيارته ، وبسماحه لمانتج أن يغادر السيارة عند الشجرة •وراح يلوم نفسه ويندد بتصرفه بالرغم من اننى كنت أحاول أن أسرى عنه وأؤكد له أننا لم نصحبه الا وفق رغبتنا ، وأن مانتج هو الذى أصر على أن يقوم بتنفيذ خطته • وكان متشائما لا يتوقع لنفسه أقل من الاعدام رميا بالرصاص • أما عنى فقد كان يرى أنهم سيبقون على حياتى ليستفيدوا من المامى باللغة اليابانية . وأخرج من حافظة نقوده صورة لزوجته ولطفليه وسألنى أن أعده بزيارتهم بعد انتهاء الحرب، لأؤكد لهم أنه قابل الموت بكل شجاعة وأنه كان يفكر فيهم لآخر لحظة من حياته . وطمأنته بأنه لا حاجة به لكل هذا التشاؤم ، وأكدت له أننا سننجو معا من هذا المأزق واننا قد نتمكن من الهرب• ولكنه ألح على فوعدته بتحقيق ما طلبه منى • ورأيت هذا الرجل الصارم الذى يبلغ من العمر ضعف ما أبلغ ينهار ويبكى •

واخيرا اقبل احد الضباط ، وأمرنا فى لهجة خشنة وبلغته الانجليزية الركيكة ، أن نخرج من الكوخ فورا • وصدعنا بما أمرنا به ، وخرجنا لنجد فرقة من الحرس حاملى السلاح .. وبين الحرس مشينا حتى قطعنا حوالى المائة ياردة ثم نادى علينا الضابط بالتوقف . فوقفنا أمام أحد الأكواخ وقفة انتباه عسكرية كما أمرنا • وبعد دخوله الى الكوخ بحوالى عشرة دقائق خرج علينا

فى أعقاب ضابط أعلى رتبة منه وكان هذا الضابط قميئا قصير القامة ، جامد الملامح قاسى العينين ، يتدلى الى جنبه سيف يكاد يكون أطول منه •

وتقدم نحونا وبدأ يحملق فى وجه كل منا واحدا بعد الآخر • وكانت عيناه تتقدان شررا ، وقد وضع يديه خلف ظهره • ثم سألنا أخيرا :

ـ أيكم يتكلم اليابانية ؟

ـ فأجبته

ـ لى بها المام بسيط •

ـ هل تصادف أنك زرت اليابان ؟

ـ كلا

ـ اذن فأين ياترى تعلمتها ؟

ـ من بعض الأصدقاء

ـ هل بوسعك أن تفهمنى اذا ما تحدثت بها اليك ؟

ـ اذا لم تسرع بحديثك •

ـ فليكن • أريد منك أن تصغى جيدا لما انا قائل • ثم تنقل لزميليك ما سمعته منى •

وبدأ حديثه وهو يروح ويغدو أمامنا فى عظمة وخيلاء • وفهمت مما يقول اننا أصبحنا أسرى بين يدى داى ـ نيبون الذى يمثل امبراطور اليابان ، ابن السماء ، سليل أسرة اما تيراسو أو فيمكامى المقدسة • ثم استطرد فى الحديث عن اليابان وانتهى الى اننا نعتبر من المحظوظين اذ نقع أسرى بين يدى مثل هذه الدولة التى يجلس على عرشها هذا الامبراطور المقدس • وأنه يتعين علينا بناء على كل ذلك أن نجيب على كل ما يوجه الينا من أسئلة • وختم حديثه أو بالأحرى خطابه قائلا :

ـ هل فهمت كل ما قلته ؟

ـ لقد فهمت كلماتك

ـ حسنا .. فلتولوا وجوهكم شطر القصر الامبراطورى • ثم لتنحنوا جباهكم احتراما وخشوعا •

فنصحت زميلى بأنه من الخير لنا أن نصدع بما تؤمر .

وتخيلت بيتر عندما يعلم بهـذه الصـورة المضحكة لثلاثتنا ؛ وقد وقفنا نؤدى فروض الولاء والطاعة للأمبراطور هيرهيتوالجالس فى قصره بعيدا عبر القارات والبحار .

ثم تقدم منى الضابط وسألنى عما تعنيه عـلامات رتبتى العسكرية المثبتة على كتفى . وأجبته بأنها تشير الى رتبتى بالقوات الجوية . فقال لى وهو ينزعها عن كتفى بكل قسوة وعنف :

ـ لا رتبـة لك الآن .. ثم ألقى بعلامات الرتبة على الأرض ؛ وبعد ذلك ثنى الى الميجور ونزع شارة رتبته من أحـد كتفيه ، فاستشاط الرجل غضبا ووضع يده على شـارة كتفه الآخر . فما كان من الضابط الياباني الا أن النفت لناحيتى محتدا :

ـ قل له أن يرفع يده

ـ فلما نقلت للميجور ما قال ، صاح محتدا هو الآخر :

ـ قل له اننى أحتفظ برتبتى العسكرية بالرغم من اننى أسير

ـ وظل واضعا يده على كتفه فى اصرار المستميت .

وامعانا من الضابط اليابانى فى اذلال الميجور الهندى بأن يصفعه على وجهه . غير أن هذا لم يحرك ساكنا . فقال له الضابط :

ـ ألم تفهم وتسمع ما أمرتك به ؟

ـ سمعت وفهمت .. ولـكننى أرفض الاعتداء على ضابطى الاعلى .

ـ فاستشاط الضابط غضبا وخطا الى الأمام حتى وقف وجها لوجه أمام الهندى ، الذى لم يقابل نظراته المتحدية بل رفع عينيه الى السماء متجاهلا وجوده كلية . وبأقصى ما يستطيعه اليابانى من قوة ، وجه للهندى لكمة قوية الى فكه قائلا :

ـ هكذا يجب ان تكلمه .

ـ ولكن الهندى لم يحرك ساكنا وظل ثابتا كتمثال من الصخر»
ولما رأى الميجور أن الموقف يزداد توترا قال للهندى :
ـ أرجوك أن تنفذ ما يأمرك به .

فأصر الهندى على رأيه ، وما كان منه الا أن اندفع فى سرعة خاطفة الى الأحراش ليلوذ بالفرار .. ولكننى كنت أدرك ، ولعله هو الآخر كان يدرك ، أن فرصته فى النجاة غير محققة . وكان إن انطلقت رصاصة من بندقية اليابانى الآخر أردته قتيلا .

الفصل الرابع

- ١ -

سئلنا كل على انفراد فى كوخ الضابط اليابانى . وكنت أتهيب عدا الاستجواب بعد ما شاهدت ورأيت من مظاهر قسوة اليابانيين وعنفهم . فما أن حل دورى حتى كان استقبال الضباط لى استقبالا وديا على خلاف ما توقعت ، فسمح لى بالجلوس على الأرض وقدم لى سيجارة قائلا :

ـ اننى جد آسف لتلك الظروف التى اضطرتنا لقتل الهندى. وكما سبق أن قلت لك ، أرجو أن تساعدنى على ما أنتويه من معاملتك بكل أناة وحلم .

ـ ثم استطرد فى حديث حاول أن يخفى به ما أعقبه من اسئلة فى الصميم . ولقد حاولت أنا الآخر أن أتظاهر بأننى لا أفهم من حديثه الا ما ظهر منه . أما ماكان بباطنه فقد احتفظت به لنفسى. وجاريته فيما كان يهدف اليه ، ولم أجد أى ضير فى هذا ؛ لأننى فى الواقع لم أكن أعلم شيئا عن خططنا العسكرية .. ولكنه عندما شعر أخيرا أن اجابتى لا تقدم ولا تؤخر ، بدا يظهر

على حقيقته ويكشف القناع عن وجهه ، وعادت لوجهه ملامحه الصارمة ولعينيه قسوتهما وشرهما . ثم لجأ الى التلويح بما يستطيعه معى من أساليب تضطرنى لأن أشفى غليله • وأجهدت نفسى حتى جعلته يطمئن الى ، فليس أيسر على المرء من ارضاء غرور المتعجرفين وأخيرا أعادنى لسجنى وجاء دور الميجور ، الذى عاد بعد ساعتين من بدء استجوابه • وعلمت منه أنه ألح عليه بأسئلة أراد بها أن يعرف منه بعض ملعومات معينة ، لم يكن الميجور نفسه ليعلم عنها شيئا • وكان الرجل فى حالة انهيار ويأس قاتل • وحاولت أن أسرى عنه وأقوى من روحه المعنوية ، وأمنيه بأننا سنجتاز هذه المحنة ان عاجلا أو آجلا • وذكرته بأن قواتنا لن تدعهم هكذا يعيثون فى الأرض فسادا . وكأننى ككنت بهذا أحاول فى الوقت نفسه أن أبعث الاطمئنان الى نفسى ، لأننى لم أكن أقل انزعاجا وقلقا منه •

وما ان حل الظلام، حتى قيدنا بسلاسل من حديد ، ووضعت الأصفاد فى أيدينا • ومع الليل وسكونه ، وكما هى العادة دائما، قضيت ساعاته أقلب وسائل الفرار على كل وجه : وما ان انبلج نور الصباح حتى تبدد ستر الظلام وتبددت معه جميع ما رسمته من خطط للهرب • وتبينت من أصوات اطلاق النار أن هناك معركتين دائرتين ، واحدة فى اتجاه امبال ، والأخرى فى اتجاه كوهيما . وما أن انتصف النهار حتى جىء بالمزيد من الأسرى ، وأقام العدو من حولنا سورا من الأسلاك الشائكة • ولم يسمح لنا بالاتصال بالأسرى الوافدين من الانجليز والهنود • وبعدقليل دعيت لأقوم بترجمة اجابات بعض الأسرى •

وسمح لى وللميجور بالخروج من كوخنا بعد الظهر حوالى الساعة الخامسة للتريض قليلا • وكانت مفاجأة سعيدة لى عندما لمحت أمام أحد الأكواخ جهازا لاسلكيا للاستقبال • فلما صرنا بالقرب منه ، سألت الجندى المختص به عن آخر الأنباء • وكان شابا لطيف المعشر ، فأجابنى فى هدوء قائلا بأن الجهاز ليس مخصصا لاستقبال الأنباء وأنه لا يستطيع أن يستمع الىاليابان •؛ فقلت له :

ـ ولكنك تستطيع أنَ تستمع الى الهند ؟

ـ أعتقد ذلك ، ولكن ...

ـ بودى لو استمعت اليها .

فما كان من الحارس المعين معنا ، الا أن أمرنى بمواصلة السير . فقلت له :

ـ ان الأخبار فيها مايسركم . لقد سمعت من الأسرى القادمين أنكم فى طريق الاستيلاء على امبال

ـ هل قال لك الأسرى الانجليز ذلك حقا ؟

ـ بوسعك أن تتأكد من ذلك اذا أدرت الجهاز .

ـ وعينت له طول الموجة ، ووقفت أنتظر النتيجة بفارغ الصبر . وطال انتظارى وطالت محاولته . وأخيرا قال لى وهو يرفع السماعة عن أذنيه :

ـ انها دعاية انجليزية

ـ أرجوك أن تسمح لى بالاستماع اليها

ـ ليس بوسعى هذا . ان ذلك من الأمور المحظورة

وألححت عليه فى الرجاء ، حتى وافق أخيرا . ولعل القارىء قد أدرك السر فى كل هذه المحاولات ، لأن الساعة كانت قد قاربت الوقت المعين لاذاعة سابى ، ولم أرد أن اضيع هذه الفرصة بحال ما . وما أن ثبت السماعة على أذنى ، حتى سمعت صوت سابى كما سمعته من قبل . وكدت أطير فرحا . ولم أصدق من فرط سرورى اننى أقف بين الأدغال بعيدا لأستمع فى أسرى لصوت سابى يرن فى أذنى . ولم يعنينى ما كانت تتلوه من أخبار . ولم يكن سماعى لصوتها الا النبأ الأكبر الذى حملته أمواج الأثير الى . وسمعتها تقرأ :

ـ ان القوات البريطانية والهندية تقوم بهجوم شديد على الحصار المفروض على الطريقين المؤديين الى امبال وكوهيما .

ولعلها كانت تريد أن تطمئننى على مصيرى دون أن تدرى ومن حيث لا تقصد . ترى متى ستعلم بموضوع وقوعى فى الأسر؟

- ٢ -

كانت ليلتى الثانية فى الأسر أسوأ من الأولى • وازدادالبأس دبيبا فى قلبى ، وتلك الأصفاد فى يدى . وحاولت أن أتحكم فى أعصابى وأدفع عن نفسى ما تضطرب به •

وسألت حارسى أن يعطينى لفافة تبغ ، فلم يضن على بها ؛ وكان لها تأثيرها فى ادخال الهدوء على نفسى واستعادتى لرباطة جاشى . وشرعت فى بحث فكرة الهرب مع الميجور . وبدا لى من مناقشته أنه بائس لا أمل له فى تحقيق هــــذه الفكرة عمليا •. ولكننى أقنعته فى النهاية بمبادلتى الرأى ، وبأنها بالنسبة لحالة يأسه لن تقدم أو تؤخر من النهاية التى ينتظرها . وما ان أصبح الصباح حتى رأينا أن التفكير شىء والتنفيذ شىء آخر • وأن فكرة الهرب مستحيلة التحقيق • وأنها أقرب الى الانتحار منها الى أى شىء آخر •

ثم جاء الحرس واصطحب الميجور مع سائر الاسرى • ورأيتهم يحيطون بهم وقد ساروا فى صف واحد • ونظر الى الميجور نظرة كلها أسى ، فأشفقت عليه • وكان هذا هو آخر عهدى به •

وسمح لى بعــــد الظهر بالتريض أسوة باليوم الســـــابق •. وحاولت نفس المحاولة مع عامل الجهاز ، فرفض وسألنى أن أبتعد عنه وأعود اليه بعد عشر دقائق يستمع فيها الى الأخبار وينبئنى بمضمونها • وكان أن عدت اليه فعلا كما طلب منى فقال لى :

- ان القوات اليابانية فى تقدم
- وماذا عن القوات البريطانية ؟
- يقول المذيع أن امبال لن تقع فى أيدينا
- المــــذيع ؟
- أجل • الرجل الذى يقرأ النشرة
- وهل كان رجلا ؟

ـ نعم • كان اليوم رجلا

ـ ألم تسمع صوت امرأة على الاطلاق ؟

ـ كلا • بالأمس كانت امرأة !

ولم يسمح لى فى اليوم التالى برياضتى اليومية • ولما استفسرت عن السبب ،قيل لى بأنها أوامر الضابط ناكامورا • ولما كنت على أحر من الجمر لمعرفه صوت المذيع الذى يقرأ نشرة الأخبار من محطة اذاعة دلهى ، حاولت بكل الوسائل أن أقنع أحد حراسى بتقصى ذلك من عامل اللاسلكى ، فعلمت منه بأن صوت المذيع كان صوت رجل • فاستبد بى القلق واشتد جزعى ، لأن هذا يعنى أن سابى مريضة ، وتبادر الى ذهنى ما ورد بخطاب مرجريت وجنيفر عن سوء حالتها الصحية • وشعرت بدبيب اليأس القاتل من عجزى عن الاتصال بها فى وقت قد تكون فى أمس الحاجة لقربى منها • وعقدت العزم على تنفيذ فكرة الهرب اذا ما علمت أنها لم تعد لقراءة نشر الأخبار بعد يوم أو يومين على الأكثر • ومهما يكن من أمر محتملات هذه الفكرة ونتائجها ، فاننى أرحب بالموت ما دمت عاجزا عن أن أكون بالقرب من سابى فى محنتها •

وتحققت فى اليوم التالى من أن الصوت لم يكن صوتها • فكدت أفقد عقلى ، وأندفع بجنون لأفقد حياتى كما فعل الهندى• ورأيت أخيرا أن أتريث ، وأن أغلب العقل على العاطفة •

وفى صباح اليوم التالى ، حلقت طائرة من طائراتنا الهاريكين فوق موقعنا وأصلته نارا • فقتل من قتل من اليابانيين ، وحرق ما حرق من أكواخ المعسكر • الا اننى لم أجد منفذا للهرب من خلال ما سببته هذه الغارة من هرج ومرج • ورأيت الضابط اليابانى يمر بين القتلى ، ثم قال لى :

ـ ان موت هؤلاء المقاتلين اليابانيين سيكلفكم كثيرا • ولست أبقى عليك الا لاننى أريد أن انتفع بك عند ما يقتضى الأمر ذلك

وصفعنى على وجهى بكل ما أوتى من قوة • ثم أمر الجند بقيدى الى احدى الأشجار •

وظللت موثقا فى الشجرة ، يحز الألم فى أوصالى باكثر مما يحز فى نفسى ، الى ما بعد ظهر هذا اليوم .. وأذكر اننى ما تحملت ألما من قبل فى حياتى ، بقدر هذا الألم الذى تحملته فى هذا اليوم .

وبعد أن خلى بينى وبين الشجرة ، اقتادونى موثق اليدين الى الأدغال ، لأتبع مؤخرة القوات المنسحبة . ولم يتيسر لى أن أدرك العلة فى هذا الانسحاب . هل كان وفق خطة موضوعة ، أم كان نتيجة للغارة الجوية ؟ .

وتوقفنا بعد مسيرة ميلين ، عند مرتفع من الأرض تحيط به الخنادق . من كل جهة . وهبطت بضع درجات الى أحد المواقع ، حيث وجدت جاويشا وثلاثة من الجنود وعرفت منهم اننى سأقضى الليل معهم .

وبدأ الظلام يرخى سدوله ، ولم يكن بالموقع غير مصباح خافت جعلنا نبدو كالأشباح ، أبعد ما نكون عن بنى البشر وما يجب أن يكرم به الانسان .

وجلست أتجاذب أطراف الحديث مع الجنود ، وقد أسوا الى بعض الشىء لالمامى باللغة اليابانية .. وبعد أن سمحوا لى بقليل من الأرز أسد به رمقى ، شعرت بآلام فى أمعائى . مما يدل على أن الدوسنطاريا قد عاودتنى . فاستأذنت أن يصحبنى أحدهم الى الخارج ، بعد أن شرحت لهم الأمر . وأصدر الجاويش أمره الى أحد الجند بأن يقوم على حراستى . ولما بلغت أعلى الدرج استدرت الى الجاويش قائلا :

- بهذه القيود الحديدية ؟

فأصدر أمره بحل وثاقى عند دخولى الى دورة المياه فقط ، على ألا تغفل عين حارسى عن مراقبتى . ولم تكن دورة المياه الا حفرة فى الأرض فى الهواء الطلق بجوار شجرة ضخمة .

ووقف الحارس شاهرا مسدسه ، ولم يكن هناك من ستر بينى وبينه الا ظلام الليل الحالك . وبعد عشر دقائق من عودتى

للخندق ، استأذنت فى الخروج ثانية وضحك الجند منى ، لانهم كانوا يعرفون بحكم تجاربهم ما أقاسيه • وفى كل مرة كانوا يحلون وثاقى ثم يعيدون احكامه ، حتى قال أحدهم متندرا

ــ أولى بكم أن تنزعوا عن يديه قيده الحديدى

وتكررت هذه العملية حوالى سبع مرات • ولاحظت أن حارسى من كثرة التكرار قد بدأ يخفف من وطأة مراقبته لى • فكان يصحبنى ثم يمشى الهوينا جيئة وذهابا دون أن يظل شاهرا مسدسه فى اتجاهى كما كان يفعل من قبل • وخطرت لى الفكرة التى أوحت الى بالتمادى فى التظاهر بالمرض • وضاق حارسى ذرعا بى حوالى منتصف الليل ، ونهرنى مهددا بأنه سيقيدنى الى الشجرة المجاورةلدورة المياه • فاعتذرت له بأنهلاحيلة لى فىذلك• وسألته أن يسمح لى بالخروج فى هذه المرة لعلها تكون الأخيرة • وخرجت من المخبأ متناقلا متظاهرا بأن قدمى لا تكادان تحملانى • وتركنى فى مكانى المعهود وراح يذرع الأرض بخطى الملل والضيق بمهمته • وشرعت أقلب الأمر على كل وجوهه ، مقدرا كل الاحتمالات القريبة والبعيدة •

وأخيرا اختمرت الفكرة التى استقر عليها رأى فى رأسى • فانتظرت حتى ابتعد الحارس عنى ووقفت لأمسك بفرع الشجرة المدلى فوق رأسى ، ناسيا ما بى من ألم وارهاق ، وارتفعت بساقى محاذرا أن أحدث أى صوت يسترعى انتباه الجندى • وتمكنت أخيرا من أن استقر بصدرى على الفرع المدلى • وكان الحارس قد عاد بخطواته ليقترب منى • فسكنت فى مكانى حتى ابتعد ثانية ، وانتهزت الفرصة لأنتقل الى فرع آخر فى الجهة الأخرى من الشجرة . وعاد ليستحثنى على العودة . ولما لم يسمع منى ردا راح يحدق النظر فى الظلام وأعاد النداء . ثم تقدم من المكان الذى كنت أستريح به مادا ذراعيه فى الظلام الدامس ليتحسس وجودى . وأسرع بحركاته المشوبة بالذعر ودار حول جذع الشجرة فزعا مرتعبا . وسمعته يقول بصوت خافت حتى لا يسمعه أحد غيرى :

ـ اخرج من مخبئك والا اطلقت عليك النار ».

وعندئذ تحقق من هربى . فعاد يقفز بأقصى ما يستطيع من سرعة الى المخبأ .. وانتهزت الفرصة وهبطت قفزا الى الأرض ، وركضت الى أول خندق صادفنى . وحرصت أن أتفادى جند الحراسة والا أثير شكوكهم . وساعدنى فى هذا أن انتباههم كان مركزا على الخارج وليس على داخل المعسكر . وواصلت ركضى فى منحدر التل بأقصى ما أستطيع من اندفاع وسرعة . وتعثرت لسوء حظى فى شىء ما وانكفأت على وجهى ، وظللت فى وضعى هذا لا أحرك ساكنا . وكان هذا الشىء الذى تعثرت قدماى به ، سلك التحذير الذى أقامه اليابانيون لينبههم فى حالة اقتراب أحد من حدود معسكرهم . وما أن تبينت ذلك حتى نهضت مسرعا فى اتجاه الدغل الكثيف ، الذى سيكون خير ستر لى فى هذا الظلام الدامس . وبعد أن خطوت عدة ياردات شعرت بشىء ما يصيبنى فوق مرفق ذراعى ، ثم سمعت صوت طلق نارى يكاد يكون مصاحبا له . وعندئذ شعرت بألم حاد فى كتفى . وانحنيت لأختفى بين الأعشاب مواصلا العدو . وتتالت الطلقات النارية ، ولكننى كنت فى أمان منها بحكم المسافة وجذوع الأشجار الضخمة التى كانت تصطدم بها . ولم أكن أدرى فى أى اتجاه كنت أسير ، ولم يكن يعنينى هذا ، ما دمت أبتعد عن المعسكر . وبعد أن قطعت مسافة غير قليلة ، توقفت لأصيخ السمع ، ولم تلتقط أذناى من الأصوات الا أصوات الحشرات والحيوانات . ولم اعر كل هذا أى اهتمام ، ما دمت قد أصبحت بمنأى عن العدو وبنادقه وسيوفه .

ثم استأنفت سيرى بعد أن استرحت قليلا . وبدأت أحس بأن ذراعى المصابة كادت تتيبس وتتوقف عن الحركة ، فتذكرت أمرها ، ووقفت لأنتزع قميصى بيسارى لأستعملة ضمادة لجرحى الذى كان ينزف دما . ولم أستطع من شدة الظلام أن أتبين شيئا عن الجرح ، بأكثر مما يحيطه من دماء بدت داكنة فى الظلام ».

واخذ منى التعب والارهاق حتى وجدت الا معدى لى من ان أستريح قليلا . فاستلقيت على الأرض مجهدا مكدودا حتى غلبنى النعاس على امرى ، ورايت فيما يرى النائم ان الضابط ناكامورا يفرغ رصاص مدفعه الرشاش فى صدرى . فصحوت من نومى لأستمع الى أصوات اطلاق النار ، بعيدا على طريق اميال .

الفصل الخامس

- ١ -

واستأنفت مسيرى فى الصباح . وكنت أمشى على غير هدى . ولاحظت اننى فى منطقة تغطيها سلسلة من الجبال حيث يبلغ ارتفاع بعضها أكثر من خمسة آلاف قدم . وكان على ان أهبط بين وديانها وأرتفع ، متعرضا لكل انواع المخاطرة والعناء . وكان الصوت الوحيد الذى يعين اتجاه ما حولى ، هو صوت اطلاق النار المتبادل فى المعركة . وقدرت أن تكون المسافة بينى وبين مواقع اطلاق النار بما لا يقل عن عشرة اميال .

وضاعفت الدوسنطاريا من آلامى الجسمانية . وازدادت هذه الآلام حدة لخلو معدتى من الطعام . وشعرت بأمعائى تكاد تتمزق ، وبذراعى ينبض الما . كل ذلك فى وقت كنت لا اجد فيه للراحة سبيلا ، وكنت مضطرا فيه أن أواصل سيرى صاعدا هابطا بين منحدرات التلال ووديانها .

وانتصف النهار او كاد ، وبدات اشعر بالظمأ لأول مرة منذ فرارى . وواصلت طريقى الشاق العسير بما يقرب من الساعتين ، كما عرفت ذلك من ميل قرص الشمس . ثم رأيت طريقا ممهدا تابعت فيه سيرى دون أن أفكر الى أين سينتهى بى . وبعد أن قطعت فيه بضع مئات من الياردات ، أبصرت بحركة عن بعد

فانتحيت جانبا لأتوارى بين الأعشاب . ومن مكانى استطعت أن أراقب الطريق ، فرأيت صفا من اليابانيين يتقدم عن بعد ، وقد حمل افراده جرار الماء مع بنادقهم . وقد لاحظت أنهم مجهدون ، يسيرون مطرقين رؤسهم صامتين ، وكأنهم من حيوانات الغابة التى تحيط بنا .

وبعد أن مروا أمامى ، نهضت وانطلقت فى عكس اتجاهم لأسمع بعد برهة وجيزة أصوات جلبة أخرى ، فعدت لأتوارى بين احراش القائمة الى جانب الطريق . ورأيت بعد قليل على الطريق فصيلة اخرى من الجند بكامل معداتها الحربية ، بما فى ذلك المدافع الثقيلة التى تحملها البغال والحمير . ومكثت فى مخبئى حتى انتهى مرورهم ، ثم نهضت لأتابع طريقى فى الأدغال ، بعد أن تبين لى أن الطريق لا يؤمن جانبه . واشتدت وطأة الظمأ على ، مما حدا بى الى أن أسير فى غير اتجاه معين بحثا عن الماء ، متمثلا أمامى ما كنت أقرؤه فى القصص عن الذين يموتون ظمأ فى الصحراء .

ولم أجد أثرا لأى جدول أو نبع ماء . ورأيت بعد أن ضاعت منى هذه الساعات فى البحث دون جدوى عن الماء ، أن أولى وجهى شطر خطوطنا مستعينا باتجاه قرص الشمس . واندفعت ناسيا ظمأى ، غير شاعر بآلام جسدى ، تحدونى — وتقوى من عزيمتى — الرغبة فى أن ابلغ خطوطنا بأى سبيل كان .

وخيم الظلام ثم جن الليل ، وانا فى طريقى لا طعام ولا أمل ، حتى تملك الاعياء منى ، وسقطت على الأرض مجهدا مكدودا ، فريسة لكل ما يمكن أن يتعرض له بشر من ألم وظمأ ونصب .. وسرت قشعريرة فى بدنى ، نتيجة لضعفى وارهاقى . وقضيت ليلة ثقيلة الوطأة ، خيل الى أن الزمن قد توقف عندها لا يتحرك . وطلع على صباح بعد ليل خلت انه لن ينتهى أبدا . ونهضت لأستأنف سيرى ، وزادت حرارة الشمس بعد ساعات من ظمأى ومن آلامى . ومع اليأس الذى بدأ يتسرب الى نفسى ، بدأ الوهن والضعف يدب فى جسدى ، وتطلعت الى السماء لأرى قرص الشمس وقد بدأ يميل نحو الغروب وسرت وأنا أكاد أزحف ، متجردا من كل احساس

وشعور ، حتى الاحساس بالزمن والشعور بكياني . وفجأة وقع نظرى على ما يشبه انعكاس أشعة الشمس على صفحة المـاء ، فاندفعت كالمجنون قبل أن أفقد هذا السراب . ولكنه لم يكن سرابا ، بل كان ماء يجرى بين الصخور . وانطرحت أرضا وأفسحت مكانا بين الحجارة بذراعى السليمة أن دفنت فيه وجهى . وأدركت فى هذه اللحظة أن الله قد جعل من الماء كل شىء حى . أدركت ذلك وأدركت أن الماء مصدر الحياة لكل من فى الكون من الأحياء جميعا . ثم غلبنى النعاس الذى حاولت أن أقاومه حتى لا أضيع وقتا ، ولكننى لم أستطع أن أتغلب عليه .

- ٢ -

واستيقظت من نومى فى ليلة صافية الأديم ، عليلة النسيم . ولم أتحقق بادىء ذى بدء مكان وجودى ، فقد كنت أحلم بمومباى وبمنزلنا على التل وسابى تمر بأصابعها على جبينى . وبدأت شيئا فشيئا أتحقق من تلك الصخور التى أستلقى عليها ومن قطرات المـاء التى تتساقط على جبينى . ولم يكن هناك سابى ولا بومباى ولا منزلنا الذى يطل على مشارفها . لم يكن هناك غير هذا السكون القاتل فى تلك الغابة الموحشة . وتذكرت أننى كنت أقاسى من الآلام أشدها ، فى كل مكان من جسدى . وتذكرت اننى عندما بلغت هذا المكـان كنت قد بلغت آخر رمق من حيـاتى . وحاولت أن أستجمع شتات فكرى ، لأننى لم أعد أشعر بشىء من ذلك الآن . فحركت ذراعى فتحرك بكل صعوبة ، وحركت ساقى فلم يتحرك الا بضع بوصات . ثم حاولت أن أنهض من رقادى ، فخيل الى أن جسدى قد شد الى الأرض وأصبح قطعة منها . وكررت المحاولة بوضع آخر ففشلت وانكفأت على وجهى .

قلت لنفسى ، هل هو الموت بدأ يدب اليك بمقدمات الهلاك ؟ . أو قدر لى ان أهلك فى هذه البقعة من العالم لتصبح جثتى طعاما للجوارح والذئاب ؟ . أو يبلغ بى ضعفى وعدم احتمالى هذا الحد الذى يجعلنى عاجزا حتى عن النهوض من مكانى ؟ . أو خاطرت

بكل ما خاطرت به من محاولة فرارى لأنطرح على الأرض عاجزا هكذا ؟ .

ولم تكن ليلتى هذه كسابقتها . كانت تلك ليلة آلام الجسد ، اما هذه فليلة الضنى وعذاب القلب . عجبا لهذه الحياة ولتصاريف القدر ! . فها انا أتوسد الأرض والحجارة فى مكانى هذا على حدود الأبد ، وغيرى الآن يتوسد الفراش الوثير ناعما هادئا .. فى هذه اللحظة بالذات ، تجد الضاحك وتجد الباكى ، وتجد السعيد وتجد الشقى . هناك من يفرح باستقبال مولود جديد ، وهناك من يحزن لوداع فقيد عزيز . زوجان سعيدان وزوجان فرق بينهما الزمن ومن اتخمه الثراء ، ومن لا يكاد يجد قوت يومه . كل فى شأنه وكل فى دنياه الخاصة به ، وكأنه يعيش فى كوكب أفرد له واختص به انها الحياة وانه القدر . القدر الذى دبر نجاتى من بورما لأقضى سنة سعيدة فى الهند . القدر الذى انتزعنى من سعادتى وهنائى ليلقى بى بين الأدغال على فراش من الصخر فى مانيبور ! .

ثم صحت الدنيا على صبح يدوى بأصوات المدافع . وحاولت مع ضوء النهار أن استجمع شتات فكرى لأقنع نفسى بأننى يجب أن اغالب ضعفى ، حتى استطيع أن اواصل طريقى لأكون الى جانب سابى ، فى وقت كنت أعرف انها فى أشد الحاجة الى قلب يحنو عليها . ولكننى فشلت فى ان أخلى بينى وبين الأرض التى أبت على أن أفارقها . ثم غبت عن وعيى ولم أدر بشىء مما يدور حولى .

- ٣ -

عندما فتحت عينى بعد ذلك ، لم أصدق ما رأيت من سماء زرقاء صافية ، واشجار تتحرك عن يمينى وعن يسارى . وتبادر الى ذهنى لأول مرة اننى قد انتقلت الى العالم الآخر . ثم تحققت من اننى حى أرزق ، عندما رأيت وجها يطل على بعينين سوداوين وانف افطس . فاسرعت واغمضت عينى .

كنت محمولا فوق محفة من البوص . وفتحت عينى بحذر ؟

لأى ظهر الرجلين اللذين يحملان المحفــة . ثم عدت لأطبق جفنى حتى استطيع أن أفرغ لمـا اريد التفكير فيه ، لأننى شعرت بيأس قاتل يطبق على صدرى . فهذا الذى أراه من حولى ، هو الأسر بعينه . الأسر الجديد الذى سيكون اشدوطأة من الأول بعد محاولتى الهرب .

ولم اعد أفكر فى آلامى ولا فى انقضاء أجلى . بل كنت أصور لنفسى ما ينتظرنى من عذاب ، وعقاب . ان هؤلاء الرجال الأربعة الذين يجشمون أنفسهم مشقة حملى على هذه المحفة ، لم يفعلوا هذا لمجرد انقاذى أو رحمة بى ، بل هم ينقلوننى لمـا ينتظرنى من عذاب واستجواب . ففتحت عينى وقلت باليابانية :

ـ هل لى فى جرعة ماء ؟ .

فحملق الرجل الذى وقع بصرى عليه لأول وهلة فى وجهى ثم التفت الى زميله الذى يحمل معه المحفة فى المؤخرة ، وراح يسألنى :

ـ ألا تتكلم الانجليزية ؟ .

ـ بكل تأكيد ، فأنا انجليزى .

ـ هل تشعر بتحسن ؟ .

ـ اننى بحاجة لجرعة من المـاء .

ـ عندما نبلغ أعلى التل ، سأعطيك ما تريد .

ـ الى أين تذهبون بى ؟ .

ـ الى مستشفى الميدان .

ـ هلا ذهبتم بى الى البريطانيين لئن فعلتم هذا فسأعملَ على مجازاتكم خير الجزاء عودوا بى الى البريطانيين ! .

فابتسم الرجل ، وخيل الى انه يسخر منى . ثم ســـمعته يقول :

ـ اننا ننقلك فعلا اليهم .

وحاولت أن أتبين من لهجته ومن نبرات صوته ما اذا كان يقول صدقا أم ما اذا كان يسخر منى ؟ .. ولكننى لم أستطع ان أحصر

تفكيري أو ان اهتدي الى شيء معين . ان هـــذا الرجـل يتكلم الانجليزية علاوة على انه يفهم ما قلته باليابانية له ، ولكنه بالرغم من كل ذلك ياباني السحنة والملامح . وسمعت الرجل يقول وكأنه قد قرأ أفكاري :

ــ لسنا من اليابانيين . اعرف ما جال بخاطرك .

ــ هذا صحيح . ان ملامحهم المغولية هي التي خدعتني . وكان يجب ان أفهم ذلك لو كلفت نفسي بتأمل قبعاتهم .

فسري عني . وارتفعت حالتي المعنوية ، وانا لا أكاد اصدق، انني نجوت . وسألته :

ــ كم الساعة الآن ؟ .

ــ الثالثة .

ــ وفي أي يوم نحن ؟ .

ــ الأربعاء .

ــ اظن أن الشهر هو شهر ابريل ؟ .

ــ الخامس من ابريل .

ــ ما أظنني سأنسى هذا اليوم ما حييت . الخامس من ابريل.

وعندما بلغنا قمة التل ، ووضعوا المحفة على الأرض ، حاولت أن انهض لأقف على قدمي . الا انه اتضح لي ان ما شعرت به من تحسن كان في حالتي المعنوية ، أما جسدي فقد كان معتلا سقيما خائر القوى . ورحت اتأمل ذراعي التي فقدت الاحساس بهـــا ، ووصلت الى انفي رائحة الجرح الكريهة ، مما خشيت معه الا يكون هناك أمل في شفائها .

وعاد الرجال ليرفعوا المحفة لمواصلة سيرهم ، وسمعت الرجل الذي كان يتبادل الحديث معي يقول :

ــ هل انت بخير ؟ . بيننا وبين المستشفى مسيرة ساعة .

وازدادت حالتي الصحية سوءا ، وشعرت بغثيان ، وكنت افتح

عينى من وقت لآخر ، فأجد الكثير من القوات سائرة على الطريق ، وأسمع صوت اطلاق النيران فى المعركة الدائرة عن بعد ٠

ومع كل هذه الآلام التى كنت أقاسى منها ، لم يتخل عنى حنينى للقاء سابى لحظة واحدة ٠ وبالرغم مما كنت أشعر به من اضطراب فى ذهنى ، الا اننى كنت لا أفكر فيما ينتظرنى من لحظة لقاء بها ٠

ووصلنا الى المستشفى فى تمام الساعة الرابعة والنصف ، وأودعت كوخا مقاما من البوص ، ثم لحق بى مريض آخر ٠ وقيل لنا ان الطبيب فى طريقه الينا ٠ وحاولت أن أتحدث الى زميلى الجريح ، ولكنه لم يكن لديه أى استعداد لهذا ٠ وأقبل الطبيب وبعد أن تأمله ، أشار باخراجه من الكوخ ٠ ثم فرغ لى ٠

الفصل السادس

- ١ -

نقلت فى سيارة أسعاف فى مساء اليوم نفسه ٠ وحمدت الله اننى ما زلت أحتفظ بذراعى ، وقد طمأننى الطبيب بأن الأمل كبير فى تحسين حالتى ، وأن هذا سيتقرر بصفة نهائية فى امبال ٠

وكان الطريق وعرا ولم تستطع السيارة أن تنطلق فيه بأكثر من خمسة أميال فى الساعة ٠ وبعد أن انحرفت الى طريق امبال ، بدأت تنطلق على أرض ممهدة مستوية ٠ وفى هذا الطريق كنا قد بدأنا السير منذ أسبوعين ، آملين أن نبلغ امبال بعد ساعتين ٠٠ نعم ٠٠٠ أسبوعان فقط خيل الى أنهما شبه عامين طويلين بكل مافيهما من شهور وأيام ٠ كنا أربعة ، قتل منا اثنان ، والثالث لا يعرف مصيره ، والرابع يرقد فى سيارة الاسعاف جريحا محطما لم يتقرر بعد مصيره ٠ أسبوعان من الأسر ومن العذاب ، ومن المرض ومن الجراح ، ومن السير على غير هدى ومن الظمأ القاتل الذى اقترب

بى من حدود الآخرة • تلك الأحداث التى مرت بى والتى هيـأت لى سبيل الهرب ، الى أين تسير بى ؟ ماذا وراء هـــذه الأحداث ؟ والىأى مصير تعده لى ؟ ان الطريق الى معرفةالاجابة عنهذهالأسئلة، فيما أرى ، هو الطريق الى معرفة الاله القدير ، الذى دفعتنى كل هذه الأحداث لأزداد قربا منه •

وحاولت أن استرخى لا نعم بما انتقلت اليه من أمان ، ببعدى عن اليابان واليابانيين ، وبأننى بين أيدى مواطنى الرحيمة • وكنت أتطلع حولى لأتمتع بمرأى زمـلائى من البريطانيين الذين يحيطون بى بالرغم من ظـلام السيارة الدامس مستعينا على الرؤية بوهج سجائرهم •

وبلغنا غايتنا فى يسر وسهولة • وحملت على المحفة الى فراشى الوثير بالمستشفى • ورفعت بصرى لأجد الممرضة وقد وقفت تحنو على كملاك من ملائكة النعيم • بل ولقد خيل الى اننى قـد انتقلت فعلا الى أجواز السموات ، لاننى لم أصدق اننى بعـد المكث فوق الأدغال والصخور ، أرقد على هذا الفراش الوثير بين الجـــدران وزملائى من بنى البشر •

وكنت أريد أن اخلد الى النوم الهادىء الذى حرمت منه طويلا، ولكن الممرضة لم تدعنى أنعم بما كنت أتوق اليه من نوم وهدوء • كان يجب أن أبدل ملابسى وأغتسل ، ثم استعد للفحص الطبى • وأقبل الطبيب الذى أمر بحقنى بالمخدر الذى افقـــدنى صوابى • ولم أستعد وعيى الا فى صباح اليوم التالى ، وعلمت اننى أستطيع أن احتفظ بذراعى وألا حاجة تدعو لبترها • الأمر الذى رفـع من روحى المعنوية وبعث السرور الى قلبى • وكان أول شىء فعلتـــه فى هذا الصباح ، تحريرى رسالة الى سـابى بيــدى اليسرى • وأودعتها كل مشاعرى وحبى ، ولما لم يكن فى استطاعتى أن أضمن رسالتى كل مامر بى من أحداث ، فقد آثرت أن أملأ سطوررسالتى بذكريات الماضى الجميل ، ثم سلمتها الى الممرضة لتبعث بها •

وكان يوجد بالغرفة التى أنزل بها جهاز راديو • وفى الساعة المحددة لاذاعة دلهى ، جلست انتظر سماع نشرة الأخبار فى لهفـة

وقلق . وكنت أعرف انني بمجرد الاستماع الى صوت سابق ستتبدد مخاوفي وتزول عني شكوكي . كما انني كنت أعرف ان عدم استماعي لصوتها سيهبط بي الى أدنى درجات اليأس والقنوط . ولكنها لم تقرأ النشرة ، وكان صوت المذيع صوت رجل . وكان في ذلك بؤسي وشقائي ، وعادت روحي المعنوية لتسوء من جديد .

وكان على أن أملى لضابط جلس بجوار فراشي ، كل ما كان من تفاصيل أسرى وهربي . ولم يفتأ يردد كلما أوغلت في التفاصيل :

ـ يا لها من مغامرة ! يكفى أنك خرجت حيا منها

وأقبل بيتر في اليوم التالى . وما أن رأيته قادما حتى عقدت الدهشة لساني ولم أستطع الكلام من فرط سعادتى . واندفع نحوى مبتسما ، تنطق ملامح وجهه بما كان يختلج في صدره . وعلمت منه بأنه حل محلى عندما أصبحت في عداد المفقودين . وأنه قد سافر بالطائرة الى امبال . وأنه لم يعلم الا اليوم بوجودى بالمستشفى . وقد قال لى فيما قال :

ـ اعتقدت انك قضيت نحبك ، فحزنت لفقدك كصديق عزيز . وضاعت منى لحظات نعيتك فيها فيما بينى وبين نفسى . وها انت الآن بصورتك الممتلئة عافية وصحة ، تحملنى على أن آسى على تلك اللحظات التى ضاعت منى هباء .

ـ ثم ضحك مستطردا :

ـ اما كان أولى بك أن تأتى معك ببعض الأسرى من اليابانيين حتى تضفى على فرارك ما يجب له من أهمية ؟

ـ لو كنت أعرف انك هنا لاستجوابهم ، لكنت فعلت ذلك

وضحكت بدورى لأول مرة منذ أيام طويلة . ثم قلت له ، بعد أن تطرق بنا الحديث الى الحرب والى وضعنا في امبال :

ـ أريد أن أرحل عن امبال في أقرب فرصة

ـ ولماذا ؟

فشرحت له كل ما كان من شكوكي عن مرض سابي ، وانها وحيدة لا تجد من يعني بأمرها ، في وقت هي أشد ما تكون حاجة فيه الى كل رعاية وعناية • فغلبت انسانية بيتر على كل ماعداها من اعتبارات :

ـ في هذه الحالة ، سنتخذ اللازم لتدبير أمر سفرك • لقد كنت أمنى نفسي بوجودنا معا فترة أخرى •

ـ شكرا يا بيتر ، شكرا • ان رجائي فيك لا يخيب •

- ٢ -

ولم أجد مشقة في تقرير نقلي عن طريق الجو من امبال ، ولعل رغبة أولى الأمر في افساح المجال لغيري من الجرحى الوافدين من الميدان ، هي التي ذللت كل الصعاب • غير انني لم أوفق في اقناع المسئولين بنقلي فورا الى دلهي ، حيث كان مقررا أن أطير الى كلكتا لأقضي بمستشفاها شهرا آخر •

وحضر بيتر الى المطار ليكون في وداعي • وسمعته يقول لي :

ـ انني لأشعر يقينا بأننا سنخرج أحياء من هذه الحرب •

ـ وماذا عن شعورك بالنسبة لسابي ؟

ـ هذا من اختصاصك أنت • أرجو أن تجدها بخير

ـ انك لم تخبرني برأيك في سابي • انني لا أذكر انك صارحتني بشيء من هذا القبيل

ـ انها أفضل من قابلت من النساء

ـ اذن فنحن متفقان

ـ أليس هذا ما يصادف هوى في نفسك ؟

ـ بكل تأكيد

ـ ولذلك قلته لك

ـ كلا • لقد كنت تعني ما تقول • لقد لمست ذلك من لهجة حديثك ومن نبرات صوتك

ـ مهما يكن من أمر ، فانى دائما أعنى ما أقول • كما أعنى ما أصارحك به الآن من أننى سأفتقدك . وانك ستجد دائما فى صدرى هذا قلبا يحبك .

ـ انك لتقول دائما مايصادف هوى فى نفسى ، وتردد ما كنت بسبيل ترديده

ـ هيا الى مقعدك قبل أن تفيض مشاعرى • الى اللقاء •»

ـ الى اللقاء

ـ وامتدت الأيدى لتتصافح فى قوة الود الصافى .»

وكانت الساعة السابعة صباحا .. وانطلقت بنا الطائرة من مطار امبال ، واتجهت غربا • وتطلعت من النافذة لأرى سهل ما نيبور منبسطا كبحيرة تحيط بها الجبال • وتبينا من مكاننا ان مواقع اليابانيين على بعد يقترب من اثنى عشر ميلا من امبال • وعجبت فى نفسى من اقدامهم هذا ومخاطرتهم بالتقدم صوب الهند بعد ان قمنا بتحطيم جميع الجسور فى بورما ، وتدمير جميع قواعدهم ومطاراتهم ، واستطاعتنا أن نخترق خطوطهم وندق أوتادنا فى صميم جبهتهم • ولكنها المجازفة والجرأة العمياء • بل وانهم ليعلمون علم اليقين بأنه لا أمل لهم فى كل ما يقومون به واننا بالغون أمرنا فى النهاية ، وسنقضى عليهم قضاء مبرما ، وسنكتسحهم أمامنا خارج بورما كلها • ان هذه الحرب يجب أن تنتهى • ان فترة الحروب فترة تتوقف فيها الحياة • أربعة أعوام ونصف مضت منذ قيام هذه الحرب ، توقفت فيها الحياة فى كل أنحاء العالم ، ولم يكن للناس من هم الا أحداثها عن قرب وعن بعد على حد سواء • لقد باعدت هذه الأعوام الطوال بين الناس وبين العيش الوادع الآمن ، وظنوا ان الحياة ما هى الا الحرب والقتال والحركات العسكرية • انهم لا يقرأون فى الصحف الا عن المواقع والقتال ، ولا يسمعون فى الاذاعات الا عنها ، حتى فقدوا الشعور بالاستقرار والأمان • انها يجب ان تنتهى • وهذا ما أعتقد أنه دار بخلد القائمين على أمرها ، فشددوا من هجومهم فى كل مكان • وتأملت الجرحى الممددين على محفاتهم من حولى ، وتطلعت من النافذة الى الأدغال والجبال وما تعج به من قوات محاربة وأدوات

قتال . وقلت فى نفسى . ما كان أغنى البشرية عن كل هذا الجهد وكل تلك الآلام .

وهبطنا الى أرض المطار فى كلكتا فى تمام العاشرة صباحا . وحملنا فى محفاتنا الى سيارات الاسعاف التى كانت فى انتظارنا . واستفسرمنى أحد الموكول اليهم بحملنا ، عندما تبين تحسن حالتى ، عما اذا كنت استطيع أن أصعد الى سيارة الاسعاف معتمدا على نفسى ، فأجبته بأننى استطيع ذلك ، وقرنت القول بالعمل ونهضت واقفا على قدمى ، وأشار لى الى السيارة التى يجب أن استقلها .

وانتظرت حتى عاد الرجل الى الطائرة ليعنى بأمر غيرى ، وبدأت أخطو بعيدا عن الطائرة وعن سيارات الاسعاف ، الى برج المراقبة دون أن ألتفت حولى . ودخلت الى البرج لأجد ضابطا برتبة قائد جناح جالسا الى مكتبه . فحييته وسألته عن الطائرة المسافرة الى دلهى . فتأمل ذراعى الجريح قبل أن يقول :

ـ هناك الكثير منها . هل تريد أن تطير الى دلهى ؟

ـ أجل

ـ هل لديك تصريح بذلك ؟

ـ كلا . لقد وصلت توا من امبال

ـ فليكن . انك لن تستطيع أن تسافر بالقطار وذراعك هكذا ! انتظر ريثما أدبر الأمر لك

وتطلعت من النافذة لأرى احدى سيارات الاسعاف تغادر المطار . ثم تبعتها بعد قليل الثانية . وفى أعقابها خرجت الثالثة والأخيرة . وفهمت من هذا أن أحدا ما لم ينتبه الى غيابى . وأنه سيمر وقت قبل أن يتبينوا هذا من الأوراق التى سلمت اليهم . بل وقد أصل الى دلهى قبل أن يدركوا شيئا من هذا التبديل ، اذا واتتنى الظروف . وبعد ذلك فليكن ما يكون ، وليفعلوا بى ما يشاءون ، بعد أن أكون قد رأيت سابى واطمأننت عليها . وعاد قائد الجناح ليخبرنى بأنه قد وجد لى مكانا فى احدى الطائرات المسافرة بعد ساعة الى دلهى .

ومن المقصف ابتعت لنفسى كوبا من عصير الليمون وبعضا من لفافات التبغ ٠ وكان الطقس فى كلكتا شديد الحرارة مشبعا بالرطوبة ٠ وقد ضاعف هذا من التهاب الجرح ومن آلام ذراعى ٠

وقفلت راجعا فى الساعة المحددة ٠ وعلمت من قائد الجناح بأن موعد قيام الطائرة قد تأجل نصف ساعة أخرى ٠ فاستفسرت منه عن موعد وصولها الى دلهى ، فأجاب بأنه حوالى السادسة ، وأردف قائلا :

ـ هل أنت فى عجلة من أمرك ؟

ـ كلا كنت أتساءل فقط

وانتظرت ثلاثة أرباع الساعة ، قبل أن يعين لى قائد الجناح الطائرة التى استقلها ٠ ووقفت أنتظر حتى صعد اليها جميع الضباط العظام الذين أزمعوا السفر بها ، ثم تأبط ضابط برتبة البريجادير ذراعى اليسار قائلا ، « هيا بنا يا فتى » ٠ وصعدت لأجد مقعدا خاليا فى انتظارى بعد أن فقدت الأمل فى ذلك ٠ وانطلقت الطائرة بنا قبل أن ينتصف النهار ٠ وما أن حلقت بنا فى الجو حتى شعرت بالهدوء يتطرق الى نفسى وبراحة الاطمئنان تعم كيانى ٠ انها الرحلة التى سيتم بعدها اللقاء بينى وبين سابى ٠

الفصل السابع

ـ ١ ـ

وصلنا مطار ولنجدون بعد السادسة بقليل ٠ وتركت المطار الى الطريق لأستقل احدى عربات التونجا ٠ وأمرت السائق بالتوجه فورا الى الفندق الذى تقيم به سابى بعد أن عينته له ٠ وخيل الى اننى لن أصل الى هذا الفندق أبدا ، من شدة تلهفى على هذا اللقاء بعد أن عشت بين الأدغال وذقت مرارة الأسر والمرض ٠ وجلست أتضرع الى الله أن أجد سابى فى الفندق لم تغادره الى مكان آخر ٠

ولما بلغت غايتي ، تذكرت انني لا أحمل معي نقوداً ، وان الروبية التي أعطاني اياها بيتر أنفقتها في شراء العصير ولفافات التبغ في مقصف المطار . فسألت السائق أن ينتظر . ودخلت الى الفندق وارتقيت الدرج الى غرفة سابي • وطرقت الباب ووقفت أنتظر • وكنت أسمع دقات قلبي في أذني • وشعرت بجفاف في حلقي • ثم عالجت مقبض الباب بعد برهة وجيزة ، ووجدت أن الباب مغلق بالمفتاح •

وهبطت الدرج وتوجهت الى قاعة الطعام والى « الاستراحة » ولاحظت أن الحاضرين يتأملونني في فضول ودهشة • فقد كانت هيئتي المهوشة وذراعي المعلق الى صدري سببا في لفت الأنظار الى • ورحت أبحث بينهم عن سابي محدقا في وجوههم • ولكن سابي لم تكن بينهم ، ولم تكن بالبهو أو بالشرفة • فقصدت أخيرا مكتب الاستقبال :

- مس وبي ؟
- نعم يا سيدي ؟
- مس وبي ، هل تقيم هنا ؟
- أجل يا سيدي • لحظة حتى أراجع السجل •
- أنا أعرف رقم غرفتها • هل لك أن تخبرني أين هي الآن ؟
- رقم غرفتها ٣٧ • يمكنك أن تصعد اليها •
- لقد كنت هناك ، ولكني لم أجدها • هل شاهدتها تخرج ؟
- أجل يا سيدي
- ومتى كان ذلك ؟
- في الحقيقة انني لا أفهم ماتريد •
- مس وبي •• هل رأيتها تخرج اليوم ؟•
- كلا يا سيدي •
- هل تعرف من هي ؟
- انها التي تقيم بالغرفة ٣٧
بحق السماء ، هلا قابلتني بمديرة الفندق ؟

ـ وقد قلت ذلك بصوت حاد مرتفع ٠

ونهض الرجـل عن مقعده مسرعا ، وتحـدث الى أحد الخدم ٠ ولما وجدت من شدة لهفتى أن الحديث طال بينهما ، تدخلت قائلا :

ـ مديرة الفندق ٠ المديرة

واختفى الخادم بعد أن قال لى :

ـ نعم ، نعم ، يا سيدى ٠ فهمت

وبعد قليل عاد الخادم لينبئنى أنه لم يستطع أن يهتدى الى مكان المديرة التى تركت الفندق ٠ فاستقر رأيى على الاتصـال بمحطة الاذاعة فى نيودلهى ٠ وبحثت عن رقم تليفونها بالدليل حتى وجدته ٠ ولما أدرت القرص سألت :

ـ محطة الاذاعة ؟

ـ كلا يا سيدى ٠

وأعدت المحاولة ، وتكرر النداء بلا ٠ فوضعت السماعة وقد استبد بى الحنق والقلق معا ٠ وعـدت الى البهو ، حيث وجدت كولونيلا كنت قد قابلته من قبل بنفس الفندق عند زيارتى السابقة لسابى ٠ قلت له :

ـ معذرة يا سيدى ٠ ألا يمكن أن تساعدنى فى احاطتى بظروف صديقة لى تقيم هنا ، مس وبى ؟ ٠

ـ ومن أنت ؟

ـ اسمى كوين ٠ وأنا عائد من جبهة القتال لتوى

ـ ان مظهرك ينم عن ذلك فعلا

ـ اننى أبحث عنها

ـ لقد صادفت هنا فتاة صينية ، ولكننى لم أتعرف اليها

ـ هل رأيتها اليوم ؟

ـ لست أذكر شيئا عنها ٠ يحسن بك أن تستفسر عنهـا من مسز بيتر تون ، انها صديقتها ٠

ـ وأشار الى سيدة تجلس فى طرف القاعة ٠

واتجهت الى السيدة ، وحييتها ثم سألتها :

ـ هـل لك فى أن تتفضلى باحاطتى علما بما تعرفينه عن مس وبى ؟

ـ مس وبى ؟ بكل تأكيد .. انها فى المستشفى كما تعرف .

ـ فى المستشفى ؟

ـ انها هناك منذ بضعة أيام

ـ ماذا بها ؟ هل تعرفين شيئا عن حالتها الصحية ؟

ـ أعتقد انالأمر كان يستدعى اجراء عملية جراحية فىرأسها . هذا كل ما أعرفه

ـ وما اسم المستشفى ؟

ـ مستشفى الملك جورج . يلوح لى أنك قلق . هـل يمكن أن أقوم بشىء من أجلك ؟

ـ كلا شكرا . اننى ذاهب فورا الى المستشفى

وخرجت الى عربة التونجا التى كانت فى انتظارى ، وأسرعت بها الى المستشفى . وما أن بلغتها حتى قفزت من العربة واندفعت الى داخل المبنى . وقابلنى أحد الموظفين الهنود مستفسرا عن بغيتى . فأخبرته بأننى أرغب فى زيارة مس وبى .

ـ مس وبى ؟ بكل تأكيد . هل لك أن تنتظر قليلا

ـ أرجوك أن تقودنى فورا اليها

ـ آسف يا سيدى . يجب أن تنتظر . هذه هى الأوامر

فوقفت أنتظر على أحر من الجمر . وأخيرا أقبلت احدى الممرضات تسألنى :

ـ هل ترغب فى زيارة مس وبى ؟

ـ أجل ، مس وبى

ـ هل أنت صديق قديم لها ؟

ـ أجل . أجل

ـ يجب أن أخبرها أولا . لايصح أن نقتحم عليها الحجرة مباشرة

ـ ولم لا ؟

- ان المفاجأة دون مقدمات قد تضر بصحتها سأذهب لاخطرها وبعد قليل ...

- هل هي بخير ؟

- لقد مرت بظروف عصيبة . ان الجراحة التي أجريت لها تعتبر من أشد الجراحات خطورة

- ولكن الآن ... كيف حالها ؟

- اننا في انتظار النتيجة . لقد انقضت عشرة أيام حتى الآن

- أرجوك أن تذهبي لاخطارها . قولي لها ميشيل

- آه . ميشيل كوين . لقد تحدثت عنك كثيرا

- أرجوك أن تسرعي . أرجوك

وتركتني وانصرفت . ووقفت انتظر في قلق ، أتأمل السقف حينا ، وأخفض بصري الى أرضية المكان حينا آخر ، حتى أقبلت الممرضة أخيرا بعد برهة خلتها دهرا لتعلن الى بأنني أستطيع أن أصعد لرؤية سابي .

وتقدمتني في ابهاء المستشفى ، الى أن رأيت باهادور جالسا أمام احدى الحجرات . وما أن وقع بصره على حتى نهض والابتسامة تعلو شفتيه والحزن يشع من عينيه . فقلت له :

- باهادور .

- سيدى ميشيل .

- كنت واثقا من انني سأجدك هنا .

- انها تنتظرك ياسيدى .

ودخلت لأجد سابي مستلقية في فراشها ، وقد كست الضمادات قمة رأسها . وكان وجهها شاحبا ممتقعا . وشعرت بغصة في حلقي لم استطع معها كلاما . فمشيت على شوق حتى بلغت حافة فراشها وجلست عليه ، متأملا وجهها الهادىء ، محدقا النظر في عينيها . وتحدثت العيون وفاضت الدموع من بين الجفون . وتعلقت الأبصار شوقا وحنينا وهياما .. ثم انخرطت سابي في بكاء هادىء ، ولم تزايل الابتسامة وجهها .

قلت لها ، بعد أن زالت عنا مشاعر دفعة اللقاء بعد هـذا الحرمان الطويل ، وبعد أن حكت الدموع ما صادفنا من عذاب فيما مر بنا من أيام :

ـ سابى .. ماذا فعلوا بك ؟.

ـ وأنت ، هلا حدثتنى بما فعلوه بك ؟.

ـ لقد أنستنى فرحة اللقـاء كل آلامى . خبرينى أنت عن أحوالك ..

ـ كما ترى .. « وأشارت الى رأسها » هذه الجراحة .

ـ لقد أخفيت عنى مرضك .

ـ لم أود أن يفسد شىء ما سعادتنا . كنت أريد أن أعيش فى حاضرى السعيد الذى جاد على به القدر .

ـ لماذا لم تبرقى الى مارجريت وجنيفر لتكونا بجوارك ؟.

ـ ان تلك البراعم الصغيرة يجب أن يباعد بينها وبين كل ما يدخل الحزن الى قلوبها . انك الآن تجلس أمامى ، وهذا كل ما كنت ابغيه .

ثم رفعت الى عينيها مستطردة :

ـ كنت أخشى ألا أراك قبل أن تأتى النهاية .

ـ لا أحب ان اسمع منك ذلك . اننى الآن معك ، وسأظل معك والى جوارك حتى يتم شفاؤك .

ـ هل تحبنى يا ميشيل ؟.

ـ هذا كلام معاد . اننى أحبك حبا ملك على زمام قلبى .. حب اختلط بكل ذرة من ذرات كيانى ، فلم يغادرنى طيفك فى أية لحظة من لحظات حيـاتى ، وأنا بعيـد عنك هناك بين الأدغال والأحراش ، ان صوتك كان دائما فى أذنى ، وعبيرك كان يملأ على كيانى . وأحب أن أؤكد لك اننى لم أحب أو لم اعرف الحب قبل أن أراك . وما اظننى سأعرفه من بعدك .

ـ كلا .. لست احب أن أسمع منك شيئا من هذا القبيل عن المستقبل . أنه ليسعدنى أن أعلم بأنك يمكن أن تسعد مع غيرى ..

ـ سابى .. عندما يتم لك الشفاء ستتزوج ...

ـ ميشيل . ألم تعدني بألا تعود للتحدث في هـذا الموضوع اننا لن نتزوج أبدا .

ـ ولماذا لا تريدين الزواج مني ؟.

ـ بل هذا هو كل ما كنت أصبو اليه ، ولكن ...

وهزت رأسها ولم تتم حديثها . وتطلعت الى بعينين قد ملئتا أسى وحسرة .

- ٢ -

لم يسمح لى الطبيب بأن أمكث أكثر من نصف ساعة ، ولما احتجت سابي على ذلك ، وعدها بأنه لا مانع من عودتي بعد ساعة لتحيتها تحية المساء .

ولما صرنا في الدهليز خارج غرفتها سألته :

ـ هل هى بخير ؟ وهل لديها من الحيوية ما تستطيع به أن تقاوم وتجتاز هذه المرحلة ؟.

ـ وماذا ترى أنت ؟ .

ـ أرى انها لا يمكن ان تموت . انها تفيض حياة ورغبة فيها .

ـ لقد أجريت لها جراحـة المخ . وهى جراحـة غير محققة النجـاح ..

ـ ولكنها بخير بعد عشرة أيام ؟ .

ـ ان الانسان لا يمكن ان يجزم بشيء . وما عليك الا أن تتذرع بالصبر وتنتظر . انها قوية الأعصاب ثابتة الوجدان . وما عليك الا أن تقوى عزيمتها وتتحلى أمامها بالشجاعة .

ـ أعرف هذا ، كما أعرف انها أكثر شجاعة منى .

ـ انها كانت تعلم بأنها فى طريقها الى النهاية ، لقد بدأ هذا معها منذ عامين .

ـ ولماذا لم تسرع باجراء الجراحة من قبل ؟.

ـ ربما كانت قد جنبت نفسها الكثير من الآلام .

ـ وهل كانت تتألم كثيرا ؟ .

ـ بدون شك .. وبالذات فى السنة الأخيرة .

ـ ولم أكن أعلم ؟ كنت سعيدا غارقا فى هنائى ، وكانت هى شقية غارقة فى آلامها ..

ـ لم يكن بوسعك أن تفعل شيئا .

ـ كان بوسعى أن أخفف من آلامها على الأقل .

ـ تستطيع ذلك الآن ، بما يجب أن تفعله لتقوى من روحها المعنوية .

ـ فليكن .. سأحاول بكل مافى وسعى أن أبدو كذلك فى حضرتها ..

ـ كلا . انها ستحس ذلك منك . يجب أن تكون قويا شجاعا وأنت بعيد عنها ، وأنت معها .

ـ هذا صحيح . سأحاول أن أكون كذلك فى جميع الأحوال .

ولم أتحمل قضاء الساعة فى غرفة الانتظار بالمستشفى .. فغادرتها الى الطريق حتى أجد فى نفحات النسيم ما ينعشنى ، وفى القمر الصاعد الى الأفق ما يؤنس وحدتى . وذكرنى هذا القمر الباهت شروقا بليلة سابقة قضيناها معا من خمسة وعشرين يوما . ولكن هل يمكن أن تحصى الأيام والساعات على حد سواء .. يوما يوما . وساعة وساعة . فهذا يوم وذاك جيل بأسره .. وتلك ساعة وهذه عمر بطوله . وحضرنى قول وايلد فى ذلك :

« ان لحظة العذاب طويلة طويلة ، ليس لها حدود أو نهاية »

وعدت الى غرفة سابى فى تمام العاشرة ، ووجدتها فى فراشها تستقبلنى بابتسامتها العذبة ، وبعينيها الجميلتين .. تفيضان حبا وحنانا . وجلست على حافة الفراش ، وبحثت عن

يدها تحت الغطاء ورفعتها الى صدرى اقبل اناملها واحدا بعد الآخر .. قالت لى بعينين تفيضان اعتذارا :

ـ هل ساءك رفضى قبول الزواج منك ؟.

ـ كلا . اننى أنا الذى لم أحافظ على وعدى . لندع الحديث فى هذا الموضوع الآن .

ـ أرجو أن تسمعنى ما تريد أن تتحدث به الآن .

ـ وماذا عساى أن أقول ؟ .

ـ ماذا أعددت لبيتنا الذى سنقيم به بعد الحرب ؟.

ـ هذا يتوقف على الجهة التى سنقيم بهـا . أهى لندن أم ريفها .

ـ انى أفضل الريف ، على أن يكون قريبا من لندن ، حتى نستطيع أن نزورها من حين لآخر .

ـ فليكن . ستكون اقامتنا فى جلوشيستر شاير ، فى بيت من الطراز القديم .

ورحت أحدثها عن المستقبل وعن النظام الذى سيكون عليه بيتنا وعن حديقتنا وعما سيكون بها من زرع وأزهار . كما تحدثنا عن عطلات آخر الأسبوع وكيف سنقضيها . ولاحظت وأنا مندفع فى حديثى متحمسا للمستقبل أن دمعة طفرت من عينيها . فتوقفت لأسألها :

ـ هل فيما أقوله ما يبكى ؟ .

ـ كلا . انها دموع السعادة والفرح .

ـ احقا ما تقولين ؟ .

ـ أجل . اننى جد سعيدة قريرة العين .

ـ هذا هو كل ما ابقيه من حياتى . أن أراك سعيدة هانئة منشرحة الصدر .

ثم تطرق بنا الحديث الى أيام سعادتنا الماضية • كيف التقينا وماذا كان شعورنا . وتنقلنا بالذكرى من مكان الى مكان ، ومن لحظة الى أخرى ، حتى قالت لى :

ـ ما أظن الا أن كل هذا كان حلما جميلا ارتاحت اليه نفسانا وسعد به قلبانا ، انه لم يكن فيه من حقيقة الحياة شيء .

ـ بل أنه هو الحياة بعينها ، وأما ماعداه فهو العدم .

- ٣ -

اقبلت الممرضة وهى تنظر فى ساعتها ، ولكننى كنت لا اريد أن أترك سابى ، وكنت أفضل البقاء الى جوارها ، حتى اسرع اليها فى اية لحظة تشتد بها آلامها . ولما أبديت رغبتى هذه للمرضة ابت على ذلك ، مؤكدة استحالة تحقيقه . فقلت لها :

ـ ولكننى لن ازعجها . وسأقضى ليلى على هذا المقعد .

ـ انها اوامر الطبيب .

ـ اذن فلأنصرف على أن يسمح لى بالعودة مرة أخرى فى الليل .

ـ لن اسمح لك فى المرة القادمة بأكثر من خمس دقائق .

ـ فليكن . اعدك بذلك .

ونهضت منصرفا . ووجدت باهادور لا يزال خارج الغرفة ، فأخبرته بأننا سنتوجه معا الى الفندق بعد ساعة ، حيث يمكننى ان أغتسل وأستريح لنعود فى الصباح . واستفسرت منه عن مفتاح غرفة سابى الذى كان محتفظا به معه ، لأنها كانت هى التى اوحت الى باستعمال غرفتها ، حيث لم يكن لى غرفة بالفندق ، ولاحظت أن الأسى يفيض من عينيه ، فقلت له :

ـ لا تقلق .. كل شيء سيسير على ما يرام .. ان صحتها ستتحسن عما قريب .

فابتسم ، ولكنني قرأت في عينيـــه نظرات الأمل المفقود ..
فاستدرت منصرفا خشية أن تنهار أعصابي وأفقد السيطرة على زمام نفسي ومشاعري ..

وخرجت الى الطريق مرة أخرى . خرجت لأقضي ســـاعة قبـــل أن أعود اليهـــا . خرجت لأستســـلم لآلامي ولأحزاني ، وحاولت جاهدا أن أباعد بيني وبين خاطر موتها . ولم اســـتطع أن أصور لنفسي ان سابي بكل مافيها من حيوية ونشاطستستسلم للموت القاهر الغلاب . وأعاد هذا الخاطر الامل في نفسي وشد من عزمي .

ولمـــا وافت الساعة الثانية عشرة ، عـــدت أدراجي أستحث الخطى . ودلفت الى المستشفى التي خيم عليهـــا السكون .. واجتزت أبهاءها ، ولاح لي انها خلت من كل الأحياء . وحـــدثت نفسي بأنني لن استطيع أن ألقى الى سابي بتحية المساء ثم انصرف وقررت أن أجلس خارج غرفتها كما يفعل باهادور . وعندما بلغت الدهليز الأخير ، سمعت صوت باب يفتح ، ورأيت المرضة تخرج من غرفة سابي . ولمـــا اقتربت مني لاحظت انها مجهدة متعبـــة فقلت لها :

ـ خمس دقائق فقط كما صرحت بذلك .

ـ ان الطبيب معها الآن .

ـ هل أنتظر ريثما يخرج ؟ .

ولـــكنها لم تعقب بشيء . فأعدت سؤالي قائلا :

ـ هل أنتظر حتى ينصرف ؟ .

ـ ألم تكن تعلم بأن ذلك لا محالة واقع ؟.

ـ ماذا تعنين ؟ .

ـ لقد لفظت أنفاسها الأخيرة منذ نصف ساعة .

ـ ماتت ؟ سابي ماتت ؟ .

فأومأت براسها وهي تتأملني اشفاقا . ثم قالت أخيرا :

ـ أجل . كنا جميعا نعرف أن ذلك سيقع ان عاجلا وان آجلا


حجره العمليات

وانه سيقع دون سابق انذار أو ألم . انها لم تشعر بأى ألم . لقد ماتت وهى فى قمة سعادتها . لقد صارحتنى بأنها تعلم بأن نهايتها قد اقتربت بعد انصرافك مباشرة ». وقالت لى انها لا تريد للحظات هذه النهاية أن تطول اشفاقا عليك ، ولقد تم لها ما ارادت فعلا . وسألتنى أن أؤكد لك انها كانت سعيدة قريرة العين ».

ثم وضعت يدها على كتفى مستفسرة :

ـ هل تود أن تراها ؟ .

ـ كلا . لا اريد أن اراها . اننى لا أطيق انأراها جثة هامدة.

ـ هل تحب أن تستريح قليلا ؟.

ـ كلا . لا راحة لى بعد اليوم .

ـ هل هناك ما يمكن أن افعله من أجلك ؟.

ـ كلا . شكرا . لقد خرج الأمر من ايدينا جميعا »

الفصل الثامن

- ١ -

ومشيت على امواج من الأسى الذى عمر به قلبى ، وخطوت فى لجة من الحزن الدفين العميق الذى يكاد يأتى على مافى منحياة وخرجت من المستشفى لأجد امامى سائق عربة التونجا واقفا ليطالبنى بأجره ، فسألته ، أن ينتظر وعدت الى حيث وجدت باهادور وقد فاضت عيناه حزنا وأسى . وطلبت من باهادور بعض الروبيات لأنقد السائق أجره · وقال لى وهو يسلمنى أكثر مما انا بحاجة اليه .

ـ ألن نعود الى الفندق ؟.

ـ كلا .

ـ أين ستقضى الليل ؟ .

ـ فى أى مكان ولن أعود أبدا الى غرفتها .

ـ هل تسمح لى بأن أكون معك ؟.

ـ كلا فلتبق أنت هنا وسأعود اليك فى الصباح .

وعدت الى السائق ونقدته أجره وصرفته .

وبخطوات متثاقلة سرت الهوينا فى طقس حار وتحت ضوء قمر يتوسط صفحة السماء . وكنت أرى النـاس من حولى أشباحا تروح وتغدو . وسرت على غير هدى وبعقل قد توقف عن التفكير . وكنت أقرب الى الأموات منى الى الأحياء ، جسدا يتحرك وقد تجرد من كل مشاعر البشر . ومن كل مايميز الانسان عن غيره من الكائنات حتى سابى لم اعد أفكر فيها أو فيما كان من امرها .

وظللت هائما على وجهى هكذا حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، وعجبت عندما تبينت أن ساعة واحدة فقط قد مرت منذ أن واجهتنى الممرضة بنبأ موتها . ساعة واحدة فقط كانت بمثابة دهر بأسره . وشعرت بالتعب والارهاق ، ولكننى واصلت سيرى حتى يزداد تعبى ويتضاعف جهدى • وينال منى الارهاق حد البلوغ بى الى ما أريده لنفسى من هلاك .

ووجدتنى أمام فندق كبير فخم • ودخلت أسأل موظف الاستقبال أن يحجز لى غرفة ، فاعتذر بأن جميع غرف الفندق مسكونة حتى شهر يونيو ، فألحفت فى رجائى حتى رق الرجل لحالى ، بعد أن تبين من ملابسى ومن ذراعى المعلقة الى صدرى ، سوء حالتى وحاجتى فعلا الى الراحة • ووعدنى بأنه سيقوم بتدبير ذلك لى . والتقط سماعة التليفون ، ووقفت أنتظر . ولما طال بى الانتظار ، رحت أذرع البهو بخطواتى قتلا للوقت • وبعد قليل رأيت رجلا وسيدة مقبلين فى اتجاهى . وتبينت فيهما ماريو ودوركاس • وصاح ماريو فرحا بلقائى :

ـ ميشيل .

ـ ماريو .

ـ يا الهى . لقد حسبتك .. آوه ، بحق السماء . ماذا فعلت بنفسك ؟.

ـ اننى بخير .

ـ متى غادرت امبال ؟.

ـ هذا الصباح .

ـ ولكن ماذا تفعل هنا ؟.

ـ احاول حجز غرفة لى . وانت .

ـ لقد عقد زواجنا بالأمس . وسنقضى الليل هنا ثم نرحل فى رحلة شهر العسل الى الجبال غدا .

ـ تهنئتى .. كم كنت أود أن أقبل العروس . ولكنك ترى .
ثم قاطعنى دوركاس قائلة :
ـ كيف حال سابى ؟.
ـ سابى ؟.
ـ ألم تقابلها ؟.
ـ أجــــل .
ـ هل هى بخير ؟.
ـ أوه .. بخير جداً .
وهنا أقبل الموظف مبتسما وقال لى :
ـ لقد دبرنا لك غرفة بالمخزن .
ـ فقالت دوركاس : « ولماذا لاتشاركنا غرفتنا ؟. »
ثم تأملتنى مستطردة :
ـ انك بحاجة لمن يعنى بأمرك .
ـ شكرا .. ان فيما أعد لى الكفاية .
فالتفتت الى موظف الفندق قائلة :
ـ انه سيشاركنا حجرتنا .
فقلت لها محتجا :
ـ انكما فى شهر العسل .
ـ أوه ، هيا يارجل .

قال ماريو ذلك وهو يتأبط ذراعى ، وارتقيت الدرج معهما ، ودخلت غرفتهما مستسلما ، لأننى لم أستطع أن أطيل الجــــدل أو أقاوم دعوتهما الملحة . وكانت حجرة فسيحة لطيفة الجو ، وألقيت بنفسى على أحد المقاعد ريثما استبدلت دوركاس ثيابها فى غرفـــة الحمام . وشرع ماريو يعد لى فراشى . وكانا مقبلين على توفير كل وسائل الراحة لى بكل حماسة وسرور . بل وبلغ بهما ذلك حدا جعلهما يعرضان على ان احل محلهما فى فراشهما الوثير وبذلت كثيرا من الجهد حتى صرفتهما عن اصرارهما ، وسمحا لى

بأن اقضى ليلتى فى الفراش الذى أعده ماريو بغرفة الاستحمام .
ولم أكن أرغب فى ذلك فقط لأباعد بين وجودى وبين مضايقتهما،
بل لأننى كنت أود أن أخلو الى نفسى ، فيما يشبه أن يكون
قبرا لى .

وآثرت الا أخبرهما بأمر سابى ، لأن فى ذلك اعادة لفظية لكل
ما حدث ، الأمر الذى كنت أخشاه وأتجنب الخوض فيه حتى
لا انهار وأضعف . وساعدنى ماريو على خلع ثيابى ، والبسنى
« منامة » من الحرير الفاخر الأنيق . ثم سألنى ان استلقى على
الفراش وقام بمساعدة زوجته بتنظيف وجهى ويدى بأسفنجة
مبتلة ، بكل عناية ودقة . وأخيرا جلس ماريو على حافة البانيو
قائلا :

ـ لعلك الآن أحسن حالا .. لقد كنت قريب الشبه ، عندما
وقع نظرى عليك فى بهو الفندق ، بالأجداث وقد بعثت من القبور .
وأردفت دوركاس قائلة :

ـ لن نرحل قبل أن نودعك المستشفى غدا .

وقاما على خدمتى وتوفير كل وسائل الراحة لى . وأتى ماريو
بمنضدة صغيرة وضع عليها بعض لفافات التبغ وكوب ماء .

وعندما وقفا بالباب يتمنيان لى ليلة سعيدة سألتهما :
ـ الى أين سترحلان غدا ؟ .

ـ الى كشمير .. ولكن لن يكون ذلك قبل أن نطمئن على
أحوالك .

ـ ان طقس كشمير بديع فى شهر ابريل .
ـ لقد أعددنا العدة لقضاء شهر العسل بين الجبال .
وانصرفا بعد أن اغلقا الباب برفق . واظلمت الدنيا من حولى
فوافقت ظلام نفسى ، وحملقت بعينى فى الظلام محاولا ان اخترق
حجبه ، وشعرت بغصة فى حلقى تصعد حتى بلغت عينى دموعا

ونحيبا ، واطبقت بالوسادة على وجهى حتى لا يسمعنى أحد .. وبكيت ما شاء لى البكاء ، وانهمرت دموعى تحكى ما فاضت به نفسى ، وتمثلت أمامى تلك الرياح الغشوم تأتى على الأزهار اليانعة فلا تبقى ولا تذر منها شيئا ، بالرغم من حرص اصحابها على سلامتها ، وتحذير سيفهم المشهر لمن تحدثه نفسه بقطفها ؟ هذا التحذير الذى لم تستطع الرياح ان تقرأه ، فأتت عليها بقسوة ولم ترحم غصنها الغض الرقيق ، ولم أستطع أنا بكل ما عمر به قلبى من حب ، أن أدفع عن سابى غائلة الموت الرهيب .

« انتهت »

الدار القومية للطباعة والنشر

الثقافة والارشاد القومى

الدار القومية للطباعة والنشر

مجلة الإذاعة والتليفزيون

مجلة بناء الوطن

مركز الإشعاع الثقافى فى العالم العربى من القاهرة

مكتبات الدار

نيويورك

لندن

الجزائر

بيروت

طرابلس

بغداد

الخرطوم

الاسكندرية

القاهرة

يصدر عنها

روايات عالمية | الكتاب الماسى

مذاهب وشخصيات | من الشرق والغرب | كتب سيا...

كتب قومية | فى المسرح العا...

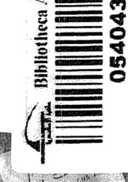
اخترنا للجندى | اخترنا للطال...

دراسات اشتراكية | رسائل جامع...









Le Scribe REVUE ARABE

El Escriba REVISTA ARABE

Der Schreiber